رواية

"أسْفَارُ العَبَث"

أغسطس ٧

أسامة الشاذلي

SAT	FRI	THU	WED	TUE	MON	SUN
السبت	الجمعة	الخميس	الاربعاء	الثلاثاء	الاثنين	الاحد
٣	٢	١				
١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤
١٧	١٦	١٥	١٤	١٣	١٢	١١
٢٤	٢٣	٢٢	٢١	٢٠	١٩	١٨
٣١	٣٠	٢٩	٢٨	٢٧	٢٦	٢٥
٣٨	٣٧	٣٦	٣٥	٣٤	٣٣	٣٢
٤٥	٤٤	٤٣	٤٢	٤١	٤٠	٣٩
٥٢	٥١	٥٠	٤٩	٤٨	٤٧	٤٦
٥٩	٥٨	٥٧	٥٦	٥٥	٥٤	٥٣
٦٦	٦٥	٦٤	٦٣	٦٢	٦١	٦٠
٧٣	٧٢	٧١	٧٠	٦٩	٦٨	٦٧
٨٠	٧٩	٧٨	٧٧	٧٦	٧٥	٧٤
٨٧	٨٦	٨٥	٨٤	٨٣	٨٢	٨١
٩٤	٩٣	٩٢	٩١	٩٠	٨٩	٨٨
١٠١	١٠٠	٩٩	٩٨	٩٧	٩٦	٩٥
١٠٨	١٠٧	١٠٦	١٠٥	١٠٤	١٠٣	١٠٢

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

@Arab_books

إلي أستاذي إبراهيم عبدالمجيد، الذي تعلمت منه أنا أكون إنسانًا قبل أن أكون روائيًا.

إلى رشا الشامي، التي أحيتْ هذه الرواية وأعادتها للحياة مرتين.

كل ما تقرأه في هذه الرواية خيالي وعبثي لدرجة أنه واقعي.

أسامة الشاذلي..

«سفر البداية»

ليلـة قاهريـة ضـل فجرهـا الطريـق، والدِّيَكـة علـى قمـم البنايـات الشـعبية تحـاول الصيـاح دون جـدوى بعدمـا اختفـت حناجرهـا.

تَوَجَّس الليل خيفة من البقاء إلى الأبد في تلك الدنيا، ارتعشت غانيةٌ كانت تحلم بانتهاء عملها والعودة إلى طفلها الوحيد بالمنزل، ذلك الطفل الذي استبدل دموع غياب أمه بقطرات حليب فاضت بها عيناه ولم يعرف مصدرها.

كان حليب تلك الليلة حالك السواد، لكن رجلا في أقصى المدينة كان يبدو وكأنه يدرك ما حدث، وعلى مقهى- يشبه صناديق البريد الخشبية المهجورة في مداخل العمارات القديمة- قرر أن يعترف، لكنه لم يجد بشرًا من حوله، فقرر أن يركب المترو إلى جهة ما لغرض ما .

كان المترو خاليًا إلا من قلة، شبح يشبه المسيح على الصليب، تعجب الرجل من آخر يحمل صليبه مرتحلًا في المترو، وعجوز أخرى ترتل في صمت أغنية حزينة بلا كلمات، ومجموعة شباب صبغت وجوههم قطرات عرق صيفي بصبغة بلا لون، تعجب الرجل من إدراك معناها

ولأن يهوذا مات مظلومًا، ولأن لا مسيح على تلك الأرض، اصطف البشر والليل خلف يزيد، وارتفعت ضحكاتهم حتى تخيلها المؤمنون صياح الدِيَكَة، فلا ناموا ولا صلوا.

فقط ارتعد الخوف في القلوب للحظة، أدرك ضعفه المتناهي

أمام سواد القلوب المصبوغة بالخيانة، قرر الفرار فلم يجد مكانا.

يقول البعض بعد عشرات السنين- وتحديدًا في شهر أغسطس- إنهم وجدوا القمر قتيلا على ناصية شارع جامعة الدول العربية، وأن الشمس انضمت لرحلة الرياح، وأن السماء سقطت من علٍ فلم تجد سوى قلب الطفل الباكي لتستقر فيه.

الأكيد أن من بقوا ليحكوا لنا هذه القصة ليس فيهم إنسان بالمعنى المعروف.

*****

«نهار 1 أغسطس»

حيـن يسـخر الضـوء مـن وجـوهٍ حَفَرَتْهَـا التجاعيـد، وجَمَّـدَ ملامحهـا الملـل.

نظر طبيب الأطفال نظرة طويلة إلى استشاري التوليد في أحد مستشفيات القاهرة الخاصة في ضاحية مصر الجديدة منتصف نهار ١ أغسطس، لم يلتفت له الاستشاري المشغول بمريضته التي تلد تحت المخدر الموضعي، اقترب طبيب الأطفال من الاستشاري، وهمس في أذنه:

- الطفل عنده ٤ خصيات!

صوت بكاء الوليد الضعيف يتسرب إلى «كشك التوليد» الصامت، التفت الاستشاري متعجبًا، وحاول إلقاء نظرة متفحصة عن بُعد، إلا أن نداء الأم مطالبةً بولدها أعاده لها مرة أخرى، بينما كانت الممرضة تتلقى الرضيع بسرعة كي تلفه في ملابسه التي أعدتها الأم خصيصًا لتلك اللحظة.

*****

ينتشر الضوء رويدًا رويدًا ليكشف عن وجوه حفرتها التجاعيد، وجمد ملامحها الملل أمام شباك مكتب البريد، يتلوى طابور المعاشات مضاهيًا ثعبانًا عملاقًا من زمن الأساطير، يفقد انتظامه كل متر تقريبا بسبب عجوز غير قادر على الوقوف، وقرر أن يتنحى جانبًا مع الحفاظ على مكانه ودوره.

تبدو أشجار الشارع- القليلة- هي الأمل والحلم في شروق الأول من أغسطس هذا اليوم الصيفي الحار، بينما يقف مكتب البريد بألوانه الخضراء والصفراء المعتادة، وشعار الهيئة الذي يمثله صقر ينطلق إلى الأعلي وخلفه دائرة غير مكتملة تلتف كلما مضى الوقت حول أعناق هؤلاء الواقفين في الصف، ينتظرون معاشهم الشهري الذي يبلغ متوسطه ١٠٠٠ جنيه.

غمغمات وتسبيحات تقطع الصمت الذي سرعان ما يستسلم هو الآخر مع غياب الظلام لروايات النساء الواقفات في طابورهن يتسلين بالكلام عن كل شيء، وأي شيء، يبدو طابور الرجال أكثر التزامًا بالصمت مع القليل من ساندوتشات الفول والطعمية وأكواب الشاي التي ينتقل بها حمادة الشاب المراهق الذي يعمل والده بوابًا لنفس العمارة التي يقع فيها مكتب البريد.

مع دقات الثامنة يخرج عبدالغفار البواب، ليقف أعلى سلم الواجهة ناظرًا إلى الطوابير بعينيه وعلى وجهه ابتسامة غير مبررة، كملك يتابع رعيته قبل أن يصرخ بصوته الجهوري:

- هانت.. فؤاد بيه مكاوي زمانه على وصول.

يتمتم الواقفون في الطابور استبشارًا بوصول مدير المكتب حسب بشارة البواب الذين اعتادوا على رؤيته وشرب الشاي

مـن يـديِّ ولـده في مطلـع كل شـهر.

تقـترب سـيارة لا دا ١٦٠٠ حمـراء عـلى مهـل لتأخـذ مكانًـا نـادرًا للوقـوف في الشـارع، يبـدو أنـه أعِـدَّ لهـا خصيصًـا بعدمـا تراكمـت السـيارات وقوفًـا صفًـا ثانيًـا وثالثًـا، يـسرع عبدالغفـار صائحًـا:

- أهلا أهلا يا فؤاد بيه، كل شهر وأنت طيب.

ينتفـض الجميـع وعيونهـم كلهـا موجهـة إلى السـيارة الحمـراء التـي توقـف محركهـا وبـدأ راكبهـا يسـتعد لمغادراتهـا، وتنتـشر كلمـة «كل شـهر وأنـت طيـب» بنفـس سرعـة انتشـار شـائعة عـن وجـود قنبلـة في إحـدى عربـات مـترو الأنفـاق.

يغـادر فـؤاد مـكاوي ذو الـ٥٧ عاما سـيارته، يبـدو- بطولـه الفارع ووجـه البيضـاوي الطويـل وبشرتـه البيضـاء وشـعره البنـي الناعـم الـذي انحـسر عـن مقدمـة رأسـه لتبـدو جبهتـه الناصعـة مـع عينيـه البُنيتـين وأنفـه الطويـل والـ«دوجـلاس» المميـز حـول فمـه، مـع عوينـات دائريـة- شـبيها بالمستكشـفين البريطانيـين الأوائـل.

تـسرع مـدام سـعاد لتسـبق مديرهـا فـؤاد بـك بخطـوات، يتأملهـا في تـأنٍ قبـل أن يشـير برأسـه علامـة عـلى عـدم الرضـا، وهـي الأربعينيـة السـمراء عاديـة الملامـح التـي يبـدو تمييـز ملامحهـا أصعـب مـن تمييـز قـرص طعميـة مـا بـين طاسـة التحمـير وطبـق التعبئـة، تبـدو خلـف الشـباك وكأنهـا خُلقـت لهـذا المـكان، طابـع

بمغة لا يثير في المتعامل معه أي اهتمام بتفاصيله.

بينما يجري شريف غنيم الموظف الآخر في نفس المكتب ليحمل حقيبة مديره، وكأن الشارع انشق عنه، يتأمله البواب عبدالغفار بعد أن احتلت وجهه نصف ابتسامة، شاب ثلاثيني، أكرت الشعر، يلبس بدلة سوداء صيفًا وشتاء، يغير البدلة ولا يغير اللون، ويرتدي قمصانًا مزركشة تتراوح ألوانها ما بين الأخضر الفوسفوري والبنفسجي، ينبئ لونه الخمري المصطنع عن زوال بشرة بيضا بفعل الموتوسكيل الذي يقدسه ويبقى حريصا على ركنه أمام الباب الخلفي لمكتب البريد.

يسرع الجميع في دخول مكتب البريد الذي استعد جيدًا لا ول الشهر بحوالة المركز الرئيسي التي دخلت خزائنه ظهر الأمس.

*****

في غرفة داخل مستشفي آخر في ضاحية مصر الجديدة، كانت جدة طفل تعيد تعديل وضع ملابسه انتظارًا لخروج والدته وبنتها من غرفة الإفاقة، ألقت نظرة راضية على نصف الطفل الأسفل، وقالت لزوج ابنتها الجالس في نفس الغرفة:

- ولد يا هشام، مبروك عليك خالد.

ابتسم هشام وغادر مقعده مقتربًا من طفله:

- الله يبارك فيكي وفيه يا حماتي.

غابت ابتسامة المرأة وانشغلت لدرجة أنها لم تسمع رد زوج ابنتها، وأشارت بإصبعها دون أن تتكلم.

ألقى الأب نظرة على طفله الوليد قبل أن يجري في المستشفي، طالبًا طبيب أطفال لرؤية طفله.

وأمام الطبيب كان الطفل يرقد نائمًا بعد أن أتم كشفه وهو يقول:

- ابنك عنده ٤ خصيات يا افندم، ودي حالة غريبة قوي ومش عارف تأثيرها ح يكون إيه.

امرأة في مستشفي الولادة في شارع الهرم تمسك بخناق طبيب التوليد، وتطالب بابن أختها الحقيقي، وتتهمه بتبديل الولد بآخر مشوه، ينزع الطبيب نفسه بصعوبة من بين يديها بينما يمسك به زوجها وأخو الزوج الغائب في عمله ليفتحا رأسه بمقبض باب غرفة الأم.

وآخر في مستشفي صغير في إمبابة يطعن طبيبا في قلبه من شدة الغضب، يتفرق المواليد وأهاليهم بين المستشفيات وأقسام الشرطة.

وخلال ساعات قليلة كانت المواقع الإخبارية الإلكترونية تتحدث عن ظاهرة الخصيات الأربعة لمواليد الأول من أغسطس، بعد أكثر من ٨٠٠ بلاغ في القاهرة نفسها، ما دعا

وزارة الصحة إلى إصدار بيان- خلال أولى ساعات الليل- تنفي كونها ظاهرة وتتهم المواقع بنشر الشائعات.

بينما كان وزير الصحة على مكتبه يلتقي بأحد مديري مستشفيات الأطفال الحكومية، ليتناقش معه حول تلك الظاهرة، التي طلب الرئيس منه شخصياً دراستها.

قدم مدير مستشفي الأطفال تقريرًا إلى الوزير وجلس يشرب القهوة التي أحضرها الساعي دون أن يتحدث بكلمة، التقط الوزير نظارته، وجرت عيناه على التقرير الذي سبق وطلبه من مرءوسِهِ حين تحدث معه في الهاتف قبل ٣ ساعات، انتفض الوزير عند قراءة آخر سطر في التقرير، وألقى نظارته على المكتب، وصرخ:

- يعني إيه كل عيل عنده ٤ بيضان ومرارتين؟! يعني إيه يا فوزي؟!

اعتدل الدكتور فوزي في مقعده، وضع فنجان القهوة في طبقه، ورد بصوت مرتبك حاول أن يكون واضحًا:

- ١٠١٠ مولود يا افندم كلهم بنفس الحالة، بدون سبب وراثي في الغالب لا نهم من أسر مختلفة، وده في القاهرة بس، اللي عرفته بس مش بصورة رسمية إن في زيهم في باقي المحافظات.

قطع رنين الهاتف حديث مدير مستشفي الأطفال، والتقط

الوزير سماعة الهاتف وهو يقول في لهفة:

- ده الريس.

على الجانب الآخر من الهاتف كان رئيس الجمهورية يقول:

- عرفت يا سيادة الوزير سر البيضان اللي ملت البلد؟

- دي مش بس كده يا افندم، ده كمان في عند كل بنت مرارتين.

*****

يدب الحماس في الجميع ويبدو ذلك الشباك الخشبي الصغير والقضبان الحديدية أشبه بأحد أبواب الجنة يوم الحشر، معلقة به العيون والقلوب، لا يلتفت أيٌّ منهم لسيارة هيونداي آكسنت فضية بلا لوحتيٍّ أرقام، اقتربتْ من الطابور لتحاول قطعه من منتصفه، يشير لها المتضررون سخطًا، بينما ينقلها سائقها لتعبر إشارات الساخطين، يغادرها ٣ رجال وامرأة ارتدى كلٌّ منهم على وجه قناعًا لشخصيات بيكسار السمكة دوري، وراعي البقر وودي، ورائد الفضاء باظ يطير، وشلبي سوليفان.

تزيد الأقنعة استياء الواقفين في الطابور، فيشير بعضهم إلى البعض حول شباب «اليومين دول» عديم القيمة والاحترام، ويبدأ أحدهم في إطلاق دعابة ساخرة قبل أن يُخرج حامل

قناع شلبي سوليفان سلاحًا «رشاش»، مشيرًا إلى الجميع بالصمت والركوع مكانهم دون حركة.

ينظر الطابور عفويًا إلى الناحية الأخرى بحثًا عن سبيل للفرار، فيفاجأهم قائد السيارة وقد استند على حقيبة سيارته مرتديًا قناع «كرة البعبع» موجها رشاشه إليهم في نفس الوقت الذي اقتحم فيه الثلاثة الآخرون المكتب.

خمس دقائق هو عمر هذا الحدث الذي كسر الروتين الشهري لا ول يوم في مكتب البريد، غادر بعدها اللصوص الخمسة في سيارتهم بين صراخ وولولة البعض، وصمت القهر الذي أصاب البعض الآخر.

لم ينفتح الشباك أبدًا في ذلك اليوم، فقط كان صراخ مدام سعاد من خلفه مشيرًا إلى أنه صار بابًا لجهنم، بينما كان فؤاد بك- الذي تشعث شعره- متعلقًا بسماعة تليفون المكتب بعدما أنهى اتصاله مع إدارته التي عنفته وطلبت منه الاتصال بالبوليس، بينما كان شريف عبدالغفار يحكي تفاصيل الاقتحام لعبير وشاهندة اللتين وصلتا للتو متأخرتين عن موعد بدء العمل، وكانتا سعيدتين أن فؤاد بك لم يشعر بهذا أو يعلق عليه.

*****

طابور آخر في شارع جانبي صغير، لم تشغل أفراده تلك الضجة الصادرة من اقتحام مكتب البريد، فقط انشغل أصحابه الذين حمل كل منهم بطاقته التموينية وحقيبة جلدية استعدادًا لصرف التموين الشهري من مكتب بقال التموين.

تبادل الحضور أسئلة محددة حول شكل وطعم الكافيار الذي أعلن وزير التموين عن بدء صرفه هذا الشهر على البطاقة، تحدث رجل عجوز- بدت على ملامحه وملابسه آثار عز غابر- في ثقة لزميله الذي خلفه في الطابور:

- ما كنتش بابطّل آكل كافيار أيام زمان، كان بييجي للمرحوم أبويا مخصوص من روسيا، كافيار إسود أصلي.

لم يجب الحديث عن سؤال الآخر حول ما هية الكافيار الحقيقية، لكنه كان كافيًا لا نْ يلتف الجميع حول العارف بالكافيار ليسألوه مرة أخرى عنه، ليكمل وكأنه لم يسمع أسئلتهم:

- بس غالبا في التموين ح يصرفوا لنا كافيار أحمر، أنتم عارفين إنهم دايما بيسترخصوا.

قاطعته امرأة خمسينية نسجت الشحوم حول جسدها مساحات شاسعة، متسائلة:

- مش هو بيض السمك حضرتك، زي البطارخ يعني، تفتكر ح يصرفوه في أكياس ولا كراتين.

نظر العجوز باشمئزاز إلى المرأة التي قاطعته، وأدار لها جانبه وكأنه يتحاشاها، محاولًا إكمال حديثه بعد أن خفض صوته قليلًا حتى تسمعه الدائرة القريبة من الرجال فقط:

- بس ميزة الكافيار الأحمر إنه بيدي الجسم طاقة بشكل كبير وغير متصورة، وخصوصا عند ممارسه الجنس.. ح يزود المواليد في البلد دي ضعفين.

ارتفعت ضحكات الحضور من الرجال قبل أن يقطعها صراخ الهاربين من اقتحام مكتب البريد.

اختلط طابور التموين بفلول طابور المعاشات، وازدادت التساؤلات حول ما حدث وصرف الكافيار، وبقيت قلة قليلة تتدوال أخبارًا حول المواليد الذكور الذين ولدوا بـ ٤ خصيات والإناث اللاتي ولدن بمرارتين.

آثر البعض الرحيل على أمل العودة في الفترة المسائية خوفًا من عصابة البريد، إلا أن بقال التموين حسم الأمر عند وصوله بصوت جهوري قائلاً:

- مش ح نفتح غير بالليل لما نعرف بالظبط إيه اللي حصل في البريد.

لم يغضب الحضور كثيرًا كالعادة، بل غمز بعضهم إلى بعض قائلين بلهجة العالم ببواطن الأمور:

- الحاج سعد خايف على الكافيار

*****

ينتظر حسين باقي رفاقه أسفل البناية التي تسكن فيها رندة تاج الدين، يداعب قناع «وودي» الملقى على المقعد بجواره، يعيد النظر إلى الأقنعة الخمسة التي تراصت على المقعد، فيتذكر فكرة بهاء ويبتسم مستعيدًا ما فعلوه اليوم، يقطع حبل أفكاره خبر فرعي في الجريدة الملقاة على ركبيته يشير إلى القبض على الكاتب الكبير عادل وجدي بتهمة ارتداء «بوكسر» أحمر، يجذب حسين الجريدة تجاه وجهه باهتمام ليقرأ تفاصيل الخبر في تركيز، ناسيًا زملاءه الذين صعدوا إلى شقة رندة من أجل تقسيم الغنيمة والتأكد من عدم تمييزها.

يشير متن الخبر إلى أنه أثناء مداهمة الشرطة لقهوة البستان- في حملة أمنية خاطفة- اكتشفت عناصر الدورية ارتداء الأديب عادل وجدي لباسًا أحمر، مخالفًا بهذا القانون الصادر بهذا الشأن حول تخصيص اللون الأسود للألبسة الرجالي والأبيض للحريمي وقصر اللون الأحمر على السلطة.

ووجهت إلى الأديب الحائز على جائزة البوكر العربية تهمة مخالفة القانون والاستهزاء بالسلطة ومحاولة إسقاط نظام الحكم.

تحسس حسين لباسه الداخلي ملقيًا نظرة خاطفة رغما عنه للتأكد من اللون، تذكر تلك الرواية الأخيرة التي قرأها لعادل وجدي حول أزمة مصابي عمى الألوان مع قوانين التمييز اللونية، والتي تسببت له في الكثير من المتاعب الحكومية.

تساءل حسين للمرة الأولى عن سبب إصدار هذا القانون؟ ثم حاول تخيُّل شكل اقتحام الدورية للمقهى وكيف كشفوا عن ملابس الحضور الداخلية، ولماذا ارتدي وجدي «بوكسر» أحمر؟ وعن العقوبة التي قد يواجهها؟ يقطع تساؤلاته اقتراب بهاء ورندة ووليد وخالد.

يبتسم لتخيل لون لباس رندة الداخلي، الأبيض المخصص للنساء، يصرخ بهاء عندما يرى ابتسامته بعفوية:

- ليه ما رضيتش تطلع معانا؟

يكتفي حسين بفتح «السنترلوك» ليعاود رفاقه ركوب السيارة، تشير رندة للأقنعة قائلة:

- مش ح نحرقهم دول؟

يضم بهاء الأقنعة إلى صدره ويقول بهلع مصطنع:

- على جثتي.. دول أغلى عليّ من الـ٣٥ ألف جنيه اللي طلعت بيهم من العملية دي.

يدير حسين سيارته وينطلق في اتجاه المطعم الذي اتفق

الأصدقاء على تناول الغداء فيه، احتفالا بنجاح عمليتهم التي قرروا تنفيذها بناء على فكرة مجنونة من رندة طليقته، والتي ترتبط بعلاقة صداقة وثيقة مع وليد وخالد صديقيه اللذين تعرف عليهما على «فيس بوك» منذ سنوات، وهي الفكرة التي سخر منها في البداية واعتبرها مجرد «هرتلة سُكر»، إلا أنه بعد عودة وليد في اليوم التالي بمخططات توضيحية لمكتب البريد وكذلك نوبات الحراسة وتسليحها، كان إشارة على أن يبقى في الأمر، أو يرحل.

وفي الحقيقة رفض الرحيل من أجل البقاء بجوار رندة لحمايتها من جنونها ومن اندفاع وليد وطيشه وبعض الغيرة التي تسربت له من الاهتمام المتبادل بين الاثنين.

راقبوا المكتب لا سبوعين كاملين، ودخلوه كعملاء ودرسوا كل تفاصيله وقرروا في النهاية تنفيذ العملية، يعرف أن بعضهم لا يحتاج هذا المال ولكنه فعلها من أجل العبث، لهذا قرر بعد نجاح العملية أن يستمر العبث إلى النهاية.

*****

«اليوم السابق 31 يوليو»

الخـذلان وخيبـة الأمـل همـا النحـت الـذي لا يمكـن للزمـن أو الغفـران محـوه مـن جـدار الـروح.

حاول حسين ضبط ستائر نافذته- ذات الشباك المعدني- لمنع ضوء شمس الظهيرة من التسلل إلى غرفة مكتبه، تأمل سور المطار المواجه لذلك المبنى الذي يضم مقر عمله، ابتسم لرؤية شاب يطيح بأقصى ما لديه من قوة بزجاجة بيرة خضراء من شباك سيارته المنطلقة، لترتطم بالرصيف الأسمنتي وتحدث صوت انفجار زجاجي، وتتناثر على الطريق لتكسر القطع الأكبر ضوء الشمس الساطع من منظورها الأخضر، بينما تنسحق القطع الصغرى تحت عجلات السيارات المارة بسرعة على الطريق المؤدي إلي مطار القاهرة.

يثبت حسين ستائره جيدًا، ويعود للجلوس أمام حاسبه المحمول المفتوح على أحد البرامج التي تعرض فيلمًا أجنبيًا مخزنًا على قرصه الصلب، يتأكد من صلاحية الترجمة قبل أن يلتقط هاتفه ليحدث صديقه بهاء مستعجلًا إياه:

- إنت فين يا بهاء؟ البيبسي سِخِن!

- أنا باركن العربية وطالع لك حالًا.

يغلق حسين هاتفه، وتحتل وجهه ابتسامة عريضة تبدو محاولة كتمانها عبثية تمامًا، تعدو أصابعه في طريق تعرفه لتتحسس زجاجة الويسكي المصري الملفوفة في حقيبتها

البلاستيكية السوداء أسفل المكتب، يلقي نظرة في نفس الوقت على زجاجة المياه الغازية المثلجة التي بدأت قطرات الماء في الانسيال على جسدها البلاستيكي، صانعة دائرة من المياه حول قاعدتها، وكأنها قررت ترك بصمتها قبل الاختلاط بالويسكي، معطية إنذارها الأخير بقرب فقدان برودتها.

يجتاز بهاء باب المكتب ويغلقه خلفه بحرص، مخرجًا يده من جيبه حاملة شريط دواء فضي اللون، احتلت الأقراص الحمراء العشرة فيه أماكنها بوضوح، يرفعه في وجه حسين صارخًا:

- وآدي الترامادول الأحمر يا برنس.

يحتضنا بعضهما البعض، ويسحب بهاء كرسيا ليواجه حاسب حسين المحمول، يعدل وضع الشاشة لضبط أحسن وضعية للصورة، بينما ينهمك حسين في صب الويسكي وسرعة خلطه بالبيبسي في كوبين من البلاستيك احتفظ بهما في أحد أدراج مكتبه الخشبي.

يحتل شعار شركة «وارنر برازر» شاشة الحاسب، يسأل بهاء دون النظر إلى الشاشة منشغلا بإخراج ٤ أقرص ترامادول من الشريط:

- فيلم إيه ده يا حسين؟

يلتقط حسين قرصين من بهاء، ويقذفهما في فمه مبتلعا جرعة من كوبه الممتلئ بخليط البيبسي والويسكي قبل أن يجيب:

- ٢ Inception يا شقيق.

يبتلع بهاء قرصيه ويرتشف رشفة صغيرة من كوبه هو الآخر، ثم يعود بظهره ليستند إلى ظهر مقعده وهو يقول:

- صباحنا عسل 'ن شاء الله، الفيلم ده بيقولوا سَحْلَة.

يرفع حسين كوبه مشيراً إلى بهاء الذي اقترب منه بكوبه هو الآخر ليصطدم الكوبان البلاستيكيان دون أي صوت، وهما يقولان في نفس الوقت:

- في صحتك وصحة ليوناردو دي كابريو اللي مهما عجز ريحته فيه.

ينشغل كل منهما بمتابعة أحداث الفيلم المعقدة، يشعلان السيجارة من سيجارة دون أن يتبادلا كلمة واحدة، فقط يسحب حسين كوب بهاء بمجرد أن ينتهي منه ليعيد ملأه بخليط الويسكي والبيبسي، بينما يخرج بهاء قرصين كل كأسين ليتناول كل منهما واحدًا.

تقتحم وحدتهما بضع طرقات على باب المكتب، يكتفي حسين بالإشارة إلي صاحبها بالانصراف والعودة بعد قليل، دون

أن يغادر بصره شاشة الحاسب المحمول.

يسأل بهاء سؤالًا حول أحداث الفيلم عقب القرص الرابع:

- هي رجعت صغيرة تاني ازاي؟ مش عملوا كده برضه في الجزء الأول زمان؟

لا يجيب حسين وكأنه لم يسمع السؤال، يهز بهاء رأسه قائلا:

- تصدق صح، ما كنتش واخد بالي.

تنتهي أحداث الفيلم عقب انتهاء شريط «الترامادول» بعشرة دقائق، يلتفت بهاء إلى حسين مبتسما:

- فيلم فشيخ، والخمس حبات عاملين معاه شغل عالي، باقي قد إيه في الويسكي؟

يلقي حسين نظرة على زجاجة الويسكي قبل أن يجيب:

- باقي كاسين لكل واحد.

- طيب صب صب، خليني ألحق أروَّح.

*****

قاد حسين سيارته ببطء متعمد، رفع صوت «كاسيت» السيارة لأعلى درجة وأخذ يردد مع المطرب أغنيته بصوت عالٍ، حاول رنين الهاتف المحمول جذب انتباهه، لكنه لم يلتفت، كان مفعول الكحول والترامادول قد أصابه بخَدرٍ في كل حواسه، ومع رنين المرة الخامسة ألقى نظرة جانبية

على هاتفه ليقرأ اسم المتصل، قبل أن يمد يده ليمنع الرنين ويواصل الغناء مخرجًا رأسه من شباك السيارة حتى يلفحه هواء ذلك الصيف القاهري الشحيح.

وأمام المنزل استغرق حسين ضعف الوقت العادي في ركن سيارته، اصطدم مرة أو اثنتين بالسيارة التي خلفه، لم ينزعج بل ضحك مع كل اصطدام بصوت عالٍ، أغلق سيارته جيدًا واستدار ليلقي نظرة على المارة وجالسي الشرفات، ليتأكد أن أحدًا لا يراقبه، كان يشعر أن كل من يراه سيدرك أنه سكران، حاول نقل قدمه بثقة أكبر لكنه شعر أنه يتحرك بالتصوير البطيء، ابتسم لهذا الخاطر وقذف نفسه داخل مدخل منزله.

تنفس الصعداء في حوش المنزل، ألقى نظرة على حجرة حارس العمارة المغلقة بقفل كبير، راودته فكرة كسر القفل، اقترب من الباب ثم تراجع خوفًا من إحداث ضجة كبيرة، قرر الانصراف مسرعًا والصعود إلى شقته.

ضغط زر الجرس على باب الشقة، ثم تذكر أنه يعيش وحيدًا، بحث داخل جيوبه عن المفتاح، لم يجده، غابت الابتسامة عن وجهه للمرة الأولى، أشعل سيجارة وحاول أن يتذكر أين ترك مفتاحه، وخلال لحظات قليلة نزل على درج السلم قافزًا بعدما تذكر أنه في سيارته.

وأمام السيارة وجد الميدالية معلقة في الباب، بينما استقر حاسبه المحمول داخل حقيبته وكذلك هاتفه المحمول على المقعد بجوار السائق، فتح السيارة سريعا والتقط حاجياته، ثم أغلقها بالمفتاح، وأعاد إلقاء نظرة مرة أخرى على المارة والجيران وهو يهمس قائلا:

- الله يخرب بيت الفضايح.

داخل الشقة ألقى بما يحمله على أول مقعد، وفتح التليفزيون بواسطة الريموت كونترول، ألقى نظرة عابرة على النتيجة الورقية المعلقة على الحائط، والتي أشارت إلى اليوم الأخير من يوليو، خلع ملابسه في الطريق إلى الحمام قبل أن يقفز تحت الدش.

*****

كان بهاء في هذا التوقيت ما زال عاجزًا عن عبور الشارع، استند إلى إحدى شجرات الحديقة الوسطى وأشعل سيجارة بعد سيجارة، لا يعرف على وجه التحديد في ما يفكر، فقط شغلته فكرة واحدة.

رأى نفسه يعبر الطريق وتصدمه سيارة وتفر بعيدًا، تاركة إياه جثة هامدة في عرض الطريق، اقترب أحدهم من جثمانه، وضع يده على عنقه ليتأكد من وفاته، سحب هاتفه المحمول

من جيبه وكذلك محفظته وأخفاهما جيدًا في ملابسه ثم صرخ بصوت عال:

- ميت يا جدعان، عربية خبطته وجِريت.

التف الناس حول الجثة، انسل اللص الصارخ من الجمع وغادر المكان، حاول البعض التعرف على شخصيته، وشعر هو باختناق لم يفهمه من الزحام.

أخرجه من خواطره أن يشعر بالاختناق بعد وفاته وبسبب الزحام، أشعل سيجارة أخرى ثم تساءل:

- هو في بعد الموت زحمة؟!

عاد مرة أخرى لخواطره، رأى جنازته، وأحزنه للغاية بكاء أمه وأخواته البنات، راقب جيدًا كل السائرين في الجنازة، رأى أصدقاءه، أزعجه عدم بكاء البعض، وتساءل عن السبب، أدهشه وجود جاره صاحب محل قطع الغيار الذي يطارده من أجل السلفة التي لم يردها حتى الآن، ابتسم لبكاء الرجل على ما له لا على شخصه المتوفي، اقتربوا كثيرًا من القبر، بدأ حاملو النعش في إخراج جثمانه الملفوف في ورق عليه علامة «بلاك ليبل»، اندهش للغاية لكنه ابتسم من كفنه الغريب، وعند فتحة القبر ارتفع صوت رنين هاتفه المحمول ليكسر صوت البكاء والنشيج الذي يحيط بجسد الميت.

عاد بهاء للواقع بعدما أدرك أن هاتفه يرن في جيبه، سارع بالرد دون النظر على اسم المتصل:

- آلو.

- إنت فين يا بهاء؟

- أنا لسه.. ما عدتش الشارع.. إنت اتحركت ولا لسه؟

- يخرب بيتك، إنت بتعمل إيه كل ده؟ أنا روَّحت واستحميت واتغديت وأنت لسه واقف مكانك؟!

- ليه يعني؟ صاروخ؟ هو أنا سايبك من قد إيه؟

- ساعة إلا ربع يا بهاء.

وضع بهاء الهاتف في جيب بنطلونه دون أن يغلق الخط، ونظر في ساعته، فاجأه أذان المغرب وإدراكه أن صديقه حسين قد عاد إلى منزله البعيد وهو لم يزل عاجزًا عن عبور الطريق، جرى بأقصى سرعة لديه، ارتفعت أصوات صرير عجلات السيارات إثر الضغط المفاجئ على المكابح، صرخ البعض مفزوعًا، شتم أحد سائقي التاكسي بهاء بوالدته وكل من له يد في وجوده في هذا العالم.

غاص هو في الزحام الذي يكسو شارعه التجاري المتفرع من الشارع الرئيس، وأشعل سيجارة جديدة قبل أن يتذكر أنه يحمل واحدة قد أشعلها من قبل في يده التي تمسك

الولاعة، حاول وضع واحدة منهما خلف أذنه، لكنه تذكر أنه مشتعلة، ألقى بها بعيدًا وتناول هاتفه ليسمع على الطرف الآخر حسين غارقا في الضحك وهو يقول:

- هههههههههههههه يخرب بيت أم البرشام.. فوق يا بهاء بكرة ١ أغسطس ميعاد التنفيذ

*****

نزع حسين البشكير عن جسده ليبقى عاريًا تمامًا أمام المرآة، تأمل- بلا مبالاة- بعض الشعيرات البيضاء التي اجتاحت مقدمة شعره، رغم بلوغه الخامسة والثلاثين منذ أيام قليلة، تحسس في دهشة تلك التجاعيد الدقيقة التي أحاطت عينيه الضيقتين، عاد للخلف قليلًا متأملًا وجهه كأنه يرى صورته للمرة الأولى.

صفف شعره البني الناعم بعناية إلى الخلف كما اعتاد دائمًا، مر بالفرشاة على شعيرات لحيته النابتة ليهذبها، ثم تحسسها مُذَكِّرًا نفسه بضرورة زيارة الحلاق عن قريب، صفَّر لحنا لا يتذكر كلماته وهو يعاود الابتسام مرة أخرى لملامحه الوسيمة التي طالما اجتذبت النساء.

بدأ في ارتداء ملابسه وهو يضرب على كرشه في الفاصل بين قطعة والأخرى لا كمال اللحن المجهول، كان يحب كرشه

بطريقة أثارت دهشة الجميع، خاصة هؤلاء الذين لا يعرفون أن كراهية زوجته السابقة للكرش وتقززها منه جعلته حريصا على المحافظة عليه، كره كل ما أحبتْ، وأحبّ كل ما كرهتْ، عدا ابنتهما الوحيدة.

توقف لبرهة عندما تذكر «آسيل» ابنته التي أنجبها منذ ٤ سنوات وطلق والدتها منذ عامين، والتي لا يراها إلا في المناسبات، غابت الابتسامة وظهرت ملامح الغضب لتصبغ وجهه باللون الأحمر، قال محدثا نفسه وهو يبحث عن زجاجة ويسكي تركها من قبل في قاع الدولاب:

- في أم في الدنيا تكرّه بنت في أبوها؟! عالم وسخة صحيح.

كان يعرف أن الخذلان وخيبة الأمل هما النحت الذي لا يمكن للزمن أو الغفران محوه من جدار الروح، وهي خذلته من قبل.

التقط الزجاجة وفتح غطاءها ليتجرع السائل الذهبي من فمها مباشرة، ثم أنزلها ضامًا عينيه بشدة محاولا تحمل ذلك الحريق الذي بثته الخمر في صدره أثر الشرب، ثم وضع الزجاجة على المكتب مكملًا ارتداء ملابسه.

*****

أنهى خالد صنع آخر طائر كركي من الورق، ثم أغلق التلفاز الذي كان يعرض فيلم «حَلق حُوش» ابتسم للصدفة العجيبة،

غدًا يسرقون مكتب البريد، بينما أبطال الفيلم يسرقون بنكاً، غادر مقعده مقتربًا من مكتبه الصغير المنزوي في أحد أركان الغرفة التي يسكن فيها على سطوح إحدى عمارات وسط البلد.

أحصى عدد عرائس الأوريجامي التي صنعها خلال هذا الأسبوع ثم قال:

- ٢٠ طائر كمان، كده فاضل لي ٥ وأكمل الألف.

كان خالد قد قرأ عن أسطورة تقول إن من يصنع ١٠٠٠ طائر كركي بفن الأوريجامي ويوزعها في كل مكان يذهب إليه تتحقق كل أمانيه، وقد عزم على أن ينهي هذا التوزيع في مكتب البريد الذين يخططون لسرقته.

عاد خالد إلى تلفازه مرة أخرى وهو منفعل للغاية قائلا:

- طيب ح اوزّع الأربعة وعشرين فين من النهارده لبكرة؟

قطع أفكاره رنين هاتفه المحمول، وظهر اسم بهاء على الشاشة، وكأن هذا كان كافيًا لا ن يلتقط الفكرة فابتسم ورد قائلا:

- بهاء.

- باقول لك يا خالد هو ليه الصغيرين بيعملوا ميتين والكبار بيعملوا عايشين؟

- مش وقت أسئلتك الوجودية دي يا عم بهاء، انزل قابلني في محطة مترو المرج، أنا ح اركب الخط القديم وح انزل في كل محطة أوزع عروسة.

- يا ابن المجنونة.. إنت لسه بتعمل الكلام ده؟

- آه يا بهاء.. يللا ما تضيعش وقت.

- أتاريك أنت كمان عامل عايش وعبيط في الوقت ذاته!

أغلق خالد تليفونه، وأسرع ليلتقط أدواته ليصنع ٤ عرائس أخرى كي يقوم بتوزيعها على الخط استعداداً ليوم الغد، فكر في زيارة الحي السابع في مدينة نصر مسقط رأسه لكنه تراجع خوفاً من قبيلة القرود التي أحتلتها بعد هرب ١١ قرداً منذ ما يزيد عن ٢٠ عاماً من إحدى عيادات الطب البيطري، ابتسم بحسرة عندما تذكر رحيل الأهالي عن المنطقة بعدما احتلت القرود كل شيء، تذكر كيف لم يجد والده مشترياً للشقة التي ضاع عمره من أجل امتلاكها وضاع الباقي في مطالبة الدفاع المدني والحكومة بتحرير الحي السابع، تذكر أن من يسكنها الأن قرد لديه عائلة.

تسائل في دهشة هل لدى القرد ولد وحيد مثلما كان ولداً وحيداً لوالده الذي رحل حزيناً.

أهمل الفكرة وحاول تناسيها وهو يتمنى أن تتحقق الأسطورة

وينجح في الهجرة التي يحلم بها منذ تخرجه من كلية التجارة وعمله مندوب مبيعات لا كثر من شركة، حتى مل المشي في شوارع القاهرة وملت منه دون أن يحقق أي شيء.

*****

أغلقت رندة تاج الدين هاتفها المحمول، وابتسمت للمرة الأولى بصدق منذ شهور، لقد وافق الجميع على فكرتها- التي رفضها حسين في البداية- لكنها كانت تعرف جيدًا كيف تؤثر في وليد وخالد، وليد الذي يعشقها قبل أن تتزوج حسين أو تعرفه أساسًا، والذي طلب منها الزواج بعد طلاقهما عقب زواج لم يستمر سوى ٤ سنوات، وخالد الذي على استعداد أن يبيع نفسه لا ول مشترٍ قادم.

كانت تعرف أن الغيرة ستقود حسين للموافقة، وأن بهاء صديقه الصغير الذي لم تحبه يومًا سيكون كلمة السر إلى أذنه، خاصة وهما يقضيان أغلب الوقت سويًا.

نجحت خطتها بالكامل وستخوض مغامرتها الخاصة للمرة الأولى وستثبت لحسين أنها كانت على حق وأنها قادرة على فعل ما لا يتخيله وأنه كان السبب الوحيد للفشل.

تأملت صورة آسيل ابنتها ذات السنوات الأربع، تحسست ملامحها عبر البرواز الذهبي اللامع على الكومودينو المجاور

لفراشها، ابتسمت- رغمًا عنها- لسعادة طفلتها الوحيدة بقضاء الليلة عند خالتها.

رن جرس الباب، فارتعشت يدها من «الخضة» ليسقط البرواز على الفراش، وتسرع لتفتح.

يقف وليد على عتبه شقتها حاملا «بوكيه» من الورد الأبيض الذي تعشقه، بينما حمل في يده الأخرى زجاجة نبيذ فرنسي أحمر وعلى وجهه ابتسامة سعيدة.

احتضنها فتخلصت منه بنعومة وهي تشير إلى العشاء الذي أعدته في انتظاره:

- يللا نتعشى.. الليل لسه طويل.

ابتسم وليد وأسرع خلفها ملتهمًا جسدها بنظراته، كان يحفظ تفاصيل هذا الجسد منذ كانت صاحبته مجرد صورة على فيسبوك، ذلك الشعر الذهبي الكثيف الذي يشبه تلك الأطواق التي رسمها الفنانون الأوروبيون في عصر النهضة حول رأس الملائكة والقديسين، وتلك الملامح الصغيرة للغاية التي يشعر معها الناظر أنها مصنوعة بناء على طلب خاص في تناسق بديع لا تشعر معه بالانزعاج لصغر حجم زوج العيون البنية التي انضوت تحت زوج من الحواجب الهلالية الشقراء، وتلك الندبة الصغيرة التي تسمى أنفًا، وزوج من الشفاة قضى

ليال طوال يتخيل كيف لفم صغير بهذا الحجم أن تكتنز شفتاه لتحملان إليه كل تلك الشهوة.

صرخت فيه رندة:

- انت ح تاكلني أنا يا وليد؟

ابتسم ابتسامة خجل وهو يمر مرورًا سريعًا على باقي جسدها، وقال:

- آه ح اكلك.

ضحكت بصوت عالٍ وهي تشير بإصبعها إليه إشارة استهجان:

- والله كان بعينك بس حكم القوي، كله فدا عملية بكرة.

اقترب وليد من رندة محاولًا تقبيلها، فابتعدت وهي تنظر له في لوم:

- جرى إيه يا وليد؟

ظهر الحرج على وجه وليد، واحمر وجهه، ثم ضغط على زر الريموت كونترول لتغيير القناة محاولًا تجاهل الرد على رندة التي أكملت

- ١٠٠ مرة قولت لك احنا اصحاب وح نفضل أصحاب بس، انسي خالص أي حاجة تانية جواك، ولولا إني فاهماك ومقدرة التوتر اللي انت فيه، كنت قلت انت عايز تمن شغلك معايا

على مخطط مكتب البريد وإقناع حسين بالموضوع.

كان التلفاز يذيع فيلمًا تسجيليًا عن تغير طبيعة الأرض في القاهرة، وكان الراوي يتساءل حول السبب الحقيقي لتلك الارتفاعات الأرضية العجيبة التي ارتبطت بوجودها أمام أقسام الشرطة في كل أحياء القاهرة.

أجاب وليد:

- عيب يا رندة أنت تعرفي عني كده؟! كل اللي حصل إني ساعات ما بقدرش أقاوم عواطفي.

أكمل الراوي في الفيلم الوثائقي قائلا:

- ويرجع علماء الجيولوجيا تلك الارتفاعات الأرضية والتكونات الترابية إلى منع المرور أمام الأقسام لفترة طويلة مع حركة مستمرة للرياح لنقل الأتربة، مما أدى إلى هذا الشكل.

ابتسمت رندة وعادت مرة أخرى للاقتراب من وليد ووضعت يدها فوق رأسه فأغمض عينه في استسلام تام وقالت:

- اعقل يا وليد، بكرة يوم مهم في حياتنا كلنا، ولما نعدي بكرة نبقى نتفاهم.

ارتعشت شفتا وليد وقفز قلبه من مكانه، قضى ما يزيد على ١٠ سنوات في حب رندة لكن زواجها من حسين فرض عليه صداقة حسين ليظل بقربها، احترم الزواج لكن الطلاق

أعاده لما كان عليه، حاول الاقتراب لكنها بقيت كما كانت قبل سنوات عشر، تفتح له الباب كلما ابتعد وتصده إن اقترب.

- لكن أحد علماء الجيولوجيا خرج بنظرية مدهشة حول تلك الارتفاعات وأعتبرها كثبانًا رملية تكونت حول شواهد قبور ضحايا التعذيب في الأقسام، والتي استخدمتها الشرطة في إخفاء جرائمها، ما دعا المتحدث باسم وزارة الداخلية لقيادة ونش بنفسه وإزالة أحد تلك الكثبان لا ثبات عدم وجود شيء أسفلها، إلا أن وفاة العالم المفاجأة حالت دون رده على ذلك الفعل من اللواء المسئول.

أشارت راندة للتلفاز قائلة:

- اقلب يا وليد مش ناقصين سيرة الشرطة النهارده بالذات.

*****

«صاحب الحقيقة»

اقترب من الشباك أكثر محاولاً قراءة اسم المحطة على اليافطة التي أفزعه وجودها على هيئة شاهد قبر.

لا يعرف متى ركب هذا المترو، كل ما يعرفه أنه في ليلة مشئومة طالت ولم يكن لها نهار، ركب مترو الأنفاق في طريقه إلى مصر الجديدة، شيئا ما دعاه إلى زيارة مقبرة أخيه في ذلك الحي البعيد، ركب من محطة «سعد زغلول»، ولأن الوقت كان متأخرًا وجد مكانًا مريحًا على أحد المقاعد.

تأمل انعكاس وجهه في المرآة، ذلك الوجه المثلث والشعر القصير الأبيض الكثيف، وتلك العينان الغائرتان الضيقتان، تكادا تختفيان خلف ثقل ظل حاجبين كثين قهرا صغر حجمهما، وأنف صغيرة وفم ذو شفتين رفيعين تنمان عن عصبية ما في عصر غابر، قطع تأملاته الفراغ المفاجئ للعربة وتوقف حركة المترو، أدهشه إغلاق النور، وصمت داهم المحطة كأنها صحراء يخشاها البشر، اقترب من الشباك أكثر محاولا قراءة اسم المحطة على اليافطة التي أفزعه وجودها على هيئة شاهد قبر، ارتد منزعجا للخلف، ولم يسعفه بصره- الكليل بفعل الزمن- على قراءة اللوحة، نظر في ساعته وجدها قد توقفت عند الثانية عشر مساء بتاريخ ٣١ يوليو.

اقترب من الباب ناويًا المغادرة، لكن شيئًا ما دفعه إلى العودة إلى مكانه مرة أخرى، وما لبث أن غفا بعد قليل، وكأنه قد

اعتاد ذلك الموقف منذ سنوات، خاصة مع عمله في هيئة المترو ضمن عمال النظافة.

وفي الصباح ومع ضجيج عجلات المترو التي بدت بانتظامها كإيقاع الطبول الإفريقية المميزة، ومع الضجيج الآخذ في التسرب إلى العربة رويدًا رويدًا مع زيادة عدد الركاب عند كل محطة، كان العجوز قد استيقظ مرة أخرى.

تلفت حوله في خجل المستيقظ وسط أغراب، لكن لم يره أحد، كان بجواره على المقعد شاب وفتاة أمسكا جيدًا بيد بعضهما البعض، بينما أمسك الشاب بيده الأخرى هاتفا محمولا يقرأ فيه للشابة شيئًا ما ، وهي لا تتوقف عن الضحك، في الناحية الأخرى عجوز ارتدت ثيابًا سوداء متجهمة الوجه، ينم الملف الأخضر- الذي يحمله الشاب في مواجهتها- عن أشِعَّة ما ، وأنهما في طريقهما إلى مستشفي الدمرداش.

وبجوارها جلس أربعيني ملتحٍ يرتل القرآن من هاتفه المحمول، بينما وقف شاب آخر في مواجهته يهز قدميه على نغم موسيقي ما تصاحب أذنيه بعيدًا عن أصوات المترو بزوج من السماعات التي سكنت أذنيه.

أعاد الرجل العجوز النظر إلى ساعة يده التي أشارت إلى الثامنة صباحًا، بينما توقف التاريخ بين رقم ١ ورقم ٢، خلع

الساعة من يده وأعاد ملأها محاولا ضبط التاريخ ولكنه عاد مرة أخرى.

ارتفع في المترو صوت الباعة الجائلين وألقى أحدهم علبة لبان على رِجل العجوز، مد آخر يده بكتاب «تعليم اللغة الألمانية بلا معلم في ثلاثة أيام»، وقبل أن يعيدها كان بائع المصاحف قد اقترب وارتفع صوته مناديًا على بضاعته.

تخيل العجوز أن كل ركاب العربة سكتوا لحظيًا، توقف ذلك الطنين المميز لعربات المترو كل صباح، بينما انخفض صوت العجلات فجأة ثم عاد كل شيء إلى سابق عهده بمجرد أن تحدث- بصوت عالٍ- أحد الركاب حول حرارة أغسطس، فأردف آخر إن جهنم أشد حرًا.

توقف الشاب عن الكلام مع الشابة بجواره، وترك يدها ليجفف عرق يده بمنديل ورقي وتساءل عن موعد تركيب تكييف في عربات مترو الأنفاق، مدت يدها لتمسح بعض نقاط العرق التي سالت على وجهه بفعل الجو، ابتسم في خجل وأمسكها في حب وهو يتلفت حوله خشية من أن يراهما أحد الركاب، أوقفته نظرة مراهق ارتدى بدلة تدريب رياضية، وحمل على ظهره حقيبة صغيرة، نظر له بعتاب، بينما نكز المراهق رفيقه الذي كان مشغولا بالتأكد من كمية

«الجل» التي وضعها على شعره في انعكاس زجاج باب عربة المترو، نظر هو الآخر إلى الشاب والشابة في وقاحة.

تجاهلهما الشاب وعاد مع صديقته إلى الهاتف، أخرج سماعة من جيبه وتناول كل واحد منهما طرفا وبدأ في تشغيل أغنية ما .

ضحك المراهق بصوت عالٍ وألقى بكلمة ما ، نظر له الشاب نظرة خاطفة في غضب بينما غرق زميله في الضحك.

استغفر أحد الواقفين في الممر والذين تعلقت أياديهم في تلك الحلقات الجلدية في مواسير المترو بصوت عال، بينما حاول آخر التوازن ريثما يجفف عرقه.

*****

«سفر الخلاص»

الشجاع الأوحد الذي انتقد سيده ومعلمه، يبكي في مكان وحده.. وسيبقى ملعونًا طيلة الدهر.

- الخلاص بين يديك، يجب أن يقتلونني حتى أفدي البشرية.

- سيدي المسيح، روحي فداك.

- بل روحي فداء للبشرية.

- لا أستطيع.. إنني أشعر بالخوف.

- ليس هنا رجل أشجع من يهوذا، من لا يعرف الخوف لم يكن يوما شجاعاً.

يعود يهوذا بذكرياته إلى مدينة قريوط، يتذكر حياته منذ لحظة الميلاد وحتى تلك اللحظة الحاسمة.

يربت المسيح على كتفه وينصرف في هدوء.. يخفت النور قليلًا في المكان، يرتجف صاحب الجسد الطويل النحيل، يتحول بياض بشرته إلى حمرة دامية بفعل الانفعال، يتحسس الجدران في وجل باحث عن سند.

يتخذ قراره الشجاع النابع من إيمانه الكامل، يتحمل عبء المسئولية التي لا يقوى على حملها أحد، يتحرك ببطء من تمردت عليه قدماه ويبدو قلبه القافز بين ضلوعه وكأنه يسبقه في السير.

*****

اللص سارق صندوق المال، الذي تساءل لماذا تعطر المسيح

على يد المجدلية ولم يبع العطر ليطعم بثمنه الفقراء؟! الشجاع الأوحد الذي انتقد سيده ومعلمه بكل براءة فكان نصيبه الاتهام.

*****

يبكي في مكان وحده، يعرف جيدًا أن من اتهموه من قبل بالسرقة سيسارعون إلى اتهامه بالخيانة، وأنه سيبقى ملعونًا طيلة الدهر.

يرى نفسه مصلوبا على صليب المسيح، يرى نفسه منتحرًا بيده، كل ما أدركه أنه سار إلى الموت واللعنة بقدميه دون أن تشكك روحه لحظة في يقينه بالله.. اتهموه بـ ٣٠ قطعة من فضة حين كان سعر زجاجة العطر ٣٠٠ قطعة.

يزعمون أن الشيطان دخل إلى روحه، بينما باعوا الشيطان من بعده لملايين البسطاء.

كان مُخلِّصًا للمُخلِّص ذاته، وقدر كل مخلص تابع أن يزوي ويحمل وزر الخيانة، بينما يبقى أولئك الذين ينكرون الحقيقة إلى الأبد، وتخلد أسماؤهم في كتب الدين والتاريخ.

«ستنكرني ثلاث مرات قبل صياح الديك».. ولم ينكره يهوذا رغم ما ينتظره من اتهامات وعار لن تمحوه الدماء.

*****

«عودة لـ31 يوليو مرة أخرى»

مجنون أو مجذوب وعمره ما فوت أسبوع.

حائط طويل يمتد لما يزيد على نصف كيلو متر، اختفي لونه الأصلي خلف عشرات من رسوم الجرافيتي لوجوه مختلفة وشعارات بهتت بفعل الزمن، يقابله على الرصيف الآخر من ضفتي الشارع سلسلة من محلات صغيرة تبيع تذكارات حملت شعارات «٢٥ يناير» و«كن مع الثورة» و«الثورة مستمرة».

بدا الشارع خاليًا ومقفرًا، فجلس أصحاب المحلات على مقاعدهم يتبادلون الحديث حول الاستعدادات لموسم ما سبيرو في شهر سبتمبر المقبل عقب نهاية موسم اعتصام يوليو.

أشار أحدهم إلى عدة محلات مغلقة عُلقت على أبوابها ورقة تشير لا جازة سنوية، قائلاً:

- أصحاب المحلات الناصحين خدوا أجازة، أغسطس الشهر الوحيد في السنة اللي ما فيهوش مواسم، ح يلحقوا يا خدوا يومين راحة قبل ما سبيرو والحج الكبير في نوفمبر في محمد محمود وبعدين مجلس الوزرا وذكرى الثورة وغيره لحد يوليو اللي جاي.

ابتسم الآخر، وقال مشيرًا إلى يا فطة حمراء قديمة تعلو يا فطات محلاتهما سويا، وتحمل حروفًا إنجليزية شكلت اسم mcdonalds بلون أبيض، ذهب لونها الأحمر بفعل الزمن:

- ماتعملش زي الناس دول ما عرفوش قيمة الوجود في الشارع ومشيوا.

وقبل أن يرد صاحب المحل الآخر، كان فوج من الرجال والنساء- أعمارهم بين الثلاثينات والخمسينات- يخترق الشارع في هدوء وصمت تام، كما اعتاد حجاج الثورة عند زيارة شارع محمد محمود.

دب النشاط في الرجل وأشار إلى صاحبه على محله واقترب من الفوج، متبرعا بقيادته عبر معالم الشارع الذي تم إغلاقه للمشاة فقط منذ ما يزيد على ١٠ أعوام، بدأ الجميع- في آن واحد ودون اتفاق- الهتاف في صوت يعلو المرة بعد الأخرى:

- عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

أومأ قائدهم لصاحب المحل حتى يقترب منه، وقال له:

- خلصوا الطواف في الميدان، أنا ح ارجع بقى مكان في إشارة قصر النيل، خلص معاهم السعي وح اعدى عليك آخر الليل نتحاسب علشان أنا مقفل حسابهم طواف وسعي ورمي جمرات كمان.

ابتسم صاحب المحل لرفيقه مشيراً له بالانصراف، بينما اقتربت إحدى الزائرات من رسم جرافيتي لرجل يرتدي زي الشرطة

وعلى كتفيه النسر والسيفان الشهيران، ووقفت تهتف وحدها

- يسقط يسقط حكم العسكر.

التفت الجمع لها وبدأ يردد نفس الهتاف، حاول صاحب المحل تنبيههم إلى أن ذلك الجرافيتي يخص اللواء الشهيد البطران لكن صوته ذهب أمام هدير هتافهم العالى.

انفصل خالد عن المجموع واقترب من صاحب المحل الآخر الجالس على الضفة الأخرى وقال بعد أن رسم على وجهه ابتسامة:

- مساء الفل.

- أؤمرني.

- الأمر لله عايز أزور محطة السادات.

تلفت الرجل حوله ليتأكد أن أحدًا لا يسمعهم ثم قال بفزع:

- معلهش أنت عارف إنه ممنوع.

أخرج خالد من جيبه رزمة أوراق ما لية ليراها الرجل ثم هم بالانصراف قائلا بآسى

- ياخسارة!

- هب الرجل من على مقعده وقال ممسكًا كتف خالد:

- استنى بس ما يبقاش خُلقك حامي، حتتدفع كام؟

اتسعت ابتسامة خالد وقال:

- اللي انت عايزه أنا مش ناوي أكمل رحلة الحج أنا ح ازور المحطة وأمشي.

أشار الرجل بأصابع يده لخالد حتى يعطيه المبلغ فأخرج ٣٠٠ جنيه ووضعها في يده،

هز الرجل رأسه رافضًا، فقال خالد:

- ح اديك زيهم بعد ما نخلص.

انسلا من الشارع دون أن يلحظهما الجمع الذي انشغل بالسعي بين رسومات الحائط والهتافات التي ترتفع لترج الشارع الصامت، والذي خلت مبانيه من سكانها بعد أن هجرها الجميع، وتداعت جدرانها على أثر الإهمال لتعطي الشارع مظهرا كئيبًا ومخيفًا ويسمح الفراغ فيها بزيادة أثر الهتافات ويصنع لها صدى للصوت يزيد حماسة الحجاج الزائرين ويمنحهم القدرة على لطم الخدود دون خجل أو وجل.

كانت البوابة الجنوبية لمحطة السادات في ميدان التحرير قد اختفي مدخلها بسبب القمامة التي خلفها موسم الاحتفال بذكرى اعتصام يوليو، لكن صاحب المحل- الأربعيني- بحركة واحدة من يده أزاح كومة كانت تسد مدخل تم بناؤه بالطوب الأحمر بشكل بدائي، وكأنه بُني على عجل، توقف خالد، لكن

الرجل جذبه من يده بسرعة ليقفزا داخل الممر الذي يكفي بالكاد شخصًا واحدًا وهو يقول:

- ادخل يا بيه، الزبالة للتمويه.

أضاء الرجل كشافه وتقدما على ضوئه الذي بدا وكأنه عنكبوت يتحرك بوهن على شباك الظلام، وبعد أمتار قليلة اضطرا أن ينحنيا حتى يسمح الممر بمرورهما، توقف خالد وصاح في مرشده:

- الممر بيضيق يا عمنا.. إيه النظام؟

التف الرجل ومد يده ضاغطًا على كتفي خالد ليزيد انحناءه دون أن يرد، ثم واصل التقدم،

وبعد أمتار قليلة كانا داخل المحطة التي صنع الممر الطوبي في بوابتها الحديدية فجوة ارتفعت لحوالي ثلاثة أرباع المتر، نفض خالد التراب من على ملابسه قبل أن يبدأ الهبوط على سلم المحطة بينما كان مرشده يصيح فيه كي يلحق به لا نه يرغب في العودة سريعا من أجل المحل المفتوح.

انتهز خالد فرصة وجوده وحده وأخرج من جيبه أحد عرائس الأوريجامي، ووضعها في أحد شقوق درجات السلم التي بدأت في التفسخ بفعل الزمن ليظهر الأسمنت من أسفلها، وقفز مسرعًا ليلحق بالرجل الذي اقترب من ساحة شباك التذاكر.

تأمل خالد لوحات الفسيفساء- التي سقط معظمها- والبوابات المعدنية التي كانت تلمع بطريقة غريبة وكأنها تتحدى الزمن، تساءل رغما عنه.

- هي ازاي البوابات الحديد دي بتلمع بالشكل ده؟!

هز الرجل رأسه وأجاب:

- يللا بس بسرعة شوف انت عايز تعمل إيه وبلاش تصوير.. انا وافقت علشان بس توفي ندرك.

- ندر إيه؟

- في حجاج بيبقوا نادرين يزوروا المحطة، وفي غيرهم بيبقوا جايين يدفنوا أعمال، بس انت شكلك مش من النوع التاني.

ابتسم خالد وأخرج طائر الكركي من جيبه، ودسه في شباك التذاكر، فأشاح الرجل بوجهه وقال متمتما:

- استغفر الله العظيم.

تأمل خالد المحطة مرة أخرى بينما تحرك الرجل في اتجاه العودة، كانت اللوحة البيضاء التي حملت الاسم قد سقطت من أحد جوانبها، فيما كتب أحدهم على لوحة الجانب الآخر اسمه، بينما تم انتزاع المقاعد البلاستيكية من مكانها وبقيت قواعدها خاوية.

اكتست الأرضية بطبقة تراب كثيفة جعلت السير عليها

يشبه السير على أطراف الشاطئ عندما تبدأ الرمال في الانحسار، غادرا ساحة التذاكر وصعدا السلم سريعا ليغادرا القاعة، وخالد يقول مخاطبًا رفيقه:

- مش ح تقولي البوابات بتلمع ليه؟

- في راجل عجوز بييجي هنا كل أسبوع مرة، هو اللي بيلمعها، ما عرفش هو مجنون ولا مجذوب بس عمره ما بيفوت أسبوع.

على مدخل النفق الطوبي أعاد الرجل كومة القمامة مرة أخرى لتخفيه، ومد يده مطالبًا بباقي أجره، في الوقت الذي كانت فيه مجموعة أخرى تطوف في ميدان التحرير مرددة في صوت واحد:

- فاكرين التحرير يا ولاد الوسخة؟

*****

انهمك الطبيب في مستشفي كنتاكي بتثبيت الدعامات الحديدية حول ركبتي الطفل ذي السنوات الخمس، لم يوقفه صراخ الطفل ودموع والدته وغياب عين الوالد عن النظر في عيني ولده، أو حتى زوجته، لكن الطبيب المشغول بإنهاء عمله غير القانوني الذي حرمته الدولة في ذلك المستشفي الميداني الباقي، كإحدى علامات ميدان التحرير.

اقترب خالد من بوابة المطعم- الذي تم إغلاقه ضمن ما أغلق في الميدان- بعد أن جذبه صراخ الطفل، كان يلعب في أصابعه بإحدى طيوره الورقية، ارتبك الحضور مع ظهور خياله على الزجاج المموه المقابل لمنضدة العمليات، أسرع الأب في اتجاه الباب مستطلعًا الزائر الذي أتى دون موعد:

أشار خالد للأب متسائلا:

- مساء الفل.. محتاج أي مساعدة؟

هز الأب رأسه شاكرًا ومشيرًا لخالد بالانصراف، ظهر الغضب لحظة على وجه خالد قبل أن يبتلعه ويمد يده للأب بالطائر الورقي وهو يقول:

- اديه لا بنك يمكن يبطل عياط.

تسمر الأب لحظات قبل أن يمد يده في استسلام ليلتقط طائر الأوريجامي، وتسللت ابتسامة ممتنة لتحتل وجهه وهو يتمتم:

- شكرًا.

ابتسم خالد بدوره وأدار ظهره وانطلق تاركًا الأب يعود إلى داخل المستشفي وهو يتمتم:

- ماينفعش اسيبه ينحني، لا زم ابني راسه تفضل على طول مرفوعة.

كان الصغير قد صمت وبقيت دموعه وتشنجات بكائه على أثر انتهاء الطبيب الذي قال وهو يجفف يده بمنشفة طبية.

- لازم ييجي كل سنة نغير الدعامة لحد ما يكمل ١٠ سنين، ومبروك عليكم ثائر نقي لا ينحني.

ابتسم الأب، بينما أطلقت الأم سبابًا رغمًا عنها، والطبيب يكمل حديثه مفتخرًا:

- أنا عملت العملية دي ٢٠ مرة الشهر اللي فات لولاد الثوار في موسم عمرة اعتصام يوليو والولاد زي الفل.. ما تقلقوش.

حمل الأب ولده على كتفه وانصرف بصحبة زوجته في اتجاه محيط مجلس الوزراء القديم من أجل نيل البركة التي تلي عملية الدعائم الحديدية التي تمنع الأطفال من الانحناء على ركبهم.

*****

«2 أغسطس»

إنهم يأكلون من أمعائهم مباشرة

خرجت الصحف الصباحية كلها تحمل صورة رئيس البلاد على مأدبة غداء أعدها خصيصًا لملك دولة مجاورة في زيارة رسمية، كانت الصور على الصفحة الأولى لملك عجوز يرتدي العقال والجلباب العربي المميز وهو يتناول الطعام مع الوفد المرافق له، بينما بدت الحكومة بكامل أفرادها مع الرئيس بذلك الخرطوم الواصل بين أفواههم وسرتهم.

ذلك الخرطوم الذي حاولت الجرائد والمواقع الأجنبية الوصول إلى سره لكنها فشلت، واكتفت بنشر الشائعات حوله، والتحليلات العلمية التي لا تصحبها معاينة ونفاها ديوان الرئاسة فقط، ظل المشهد عصيًا على الاعتياد واكتفى الظرفاء باطلاق لقب «حكومة الحبل السُري» على حكومتهم، بينما تراجع خبر ولادة الأطفال الذكور بأربع خصيات والإناث بمارتين للصفحات الداخلية، مع تأكيدات بعض الخبراء الاستراتيجين على كونها مؤامرة إسرائيلية فلسطينية إيرانية أمريكية لتشويه مستقبل مصر، إلا أن الصفحة الأخيرة حملت خبر سرقة مكتب البريد في عمودين مع صورة صغيرة لمكتب البريد.

ابتسم وليد وهو يشير بيده إلى رندة عن الخبر، بينما اكتفت هي بنظرة حادة آمرة له أن يتوقف، التفت حوله

ليستطلع رواد المقهى الذي يجلسان فيه في ميدان الكوربة في مصر الجديدة، ثم عاد من جديد لينظر في وجهها بعدما أخفى الجريدة لا إراديا أسفل المنضدة، قالت رندة:

- اعقل يا وليد.. لسه الشغل ما خلصش.

ابتسم وليد ابتسامة العارف ببواطن الأمور وقال:

- المشكلة ح اقنع حسين ازاي؟ ولا إيه رأيك نستغنى عنه؟ العملية ممكن تتعمل بأربعة.

هزت رندة رأسها بغضب، وقالت مشيحة بوجهها عنه:

- بقول لك إيه.. اسمع الكلام وانت ساكت، وحسين اللي ح ييجي يطلب مننا نعمل الجزء التاني من الخطة.

- طيب ما تقولي لي ازاي خليني أفهم.. هو حرام إني أفهم؟!

هزت رندة رأسها مرة أخرى بنفاد صبر، واقتربت من أذنه وهمست:

- بهاء ح يجيبه.

وقبل أن يعاود وليد سؤاله مرة أخرى عن كيفية حدوث هذا، لثمت أذنه فارتعش جسده واهتزت يده التي حملت فنجان القهوة لتسقط على بنطاله، فينتفض مفزوعا، بينما ارتفع صوت ضحكة رندة ليملأ المكان.

في الوقت ذاته الذي كان فيه بهاء بصحبة خالد يطرقان باب

شقة حسين، فتح حسين باب شقته وهو لم يفتح عينيه فعليًا على أثر الاستيقاظ من النوم على طرقات صديقيه، أفسح لهما الطريق ليمرا إلى الداخل فهتف فيه بهاء:

- إغسل وشك وفوق وهات إزازة ويسكي نبل ريقنا.. عندنا كلام مهم.

عاد حسين من الحمام ليجد بهاء قد جلس ممسكًا بـ«ريموت كونترول» التلفاز يقلب في قنواته، بينما انشغل خالد بصب كئوس الويسكي من الزجاجة التي تركها ليلة أمس على المنضدة، فجلس مشيرًا له بعدم صب كأس له، ثم قال:

- خير يا مزعج؟!

أغلق بهاء التلفاز وارتسمت على وجهه ابتسامة طفولية جدًا قبل أن يقول:

- تخيل يا صاحبي مكتب البريد عملوا فيه إيه، سحبوا العساكر وبعتوا غيرهم وقرروا يودعوا بكرة نفس المبلغ علشان الموضوع يعدي وماتحصلش دوشة، ومن ساعة صدر أمر بحظر النشر.

- ظهر الغضب على وجه حسين وقال بصوت مرتفع:

- يعني انت مصحي أمي علشان تقول لي الأخبار التافهة دي؟ دول بيحظروا النشر في قضايا النشل دلوقتي!

تجرع بهاء كأسه مرة واحدة وقام من على مقعده مواجها حسين وهو يقول:

- لا يا عم أنا ما صحيتكش علشان كده، صحيتك علشان تيجي معايا نقابل رندة ووليد علشان حنروح بكرة ناخد الفلوس الجديدة اللي ح يودعوها، وبنفس الطريقة.

رد حسين بسرعة:

- إنتو أكيد مجانين.

ثم نظر إلى خالد وسأله:

- وأنت موافق يا فالح على الكلام ده؟

ابتسم خالد الذي كان يتجرع كأسه ببطء شديد وهو يقول:

- هما ٣٥ ألف جنيه يعملوا إيه الأيام دي يا صاحبي؟ ده كيلو البامية وصل ٩٠ جنيه، ده انا بافكر ننقل عملياتنا سوق الخضار.

أمسك بهاء بكتف حسين وقال مكملًا ما بدأه خالد:

- باقول لك إيه يا حسين.. إحنا رايحين بكرة، ولو عددنا نقص وارد نغلط ونتمسك وفي كل الأحوال ح نحاول م نجيبش سيرتك، بس تفتكر هما مش حيعرفوا؟

*****

«صاحب الحقيقة»

فقط بقية خيالات الضوء والنهار خارج النفق تشير إلى زمن طويل.

لم يعرف العجوز الوقت الذي قضاه راكبًا المترو، فقط بقية خيالات الضوء والنهار خارج النفق تشير إلى زمن طويل، كان كل ما يهمه هو ذلك التوقيت الذي يغادر فيه المترو في محطة سعد زغلول ليعود سيراً على الأقدام في اتجاه محطة السادات المغلقة، لن يثنيه شيء ما عن نذره الذي نذره يوم إغلاق المحطة قبل سنوات طوال لا يسمح له عمره بتذكر عددها.

كان عمله السابق في شركة مترو الأنفاق قد سمح له بمعرفة الطرق والبوابات وكذلك بعض العاملين الذين يمكنهم التدخل للتجاوز عنه إذا أمسك به أحدهم، لكنه فشل في مغادرة المترو مرة ثانية، بقى يؤدي نذوره في تلميع بوابات المترو المعدنية في محطة السادات ثم يعاود السير في اتجاه محطة أحمد عرابي ليركب المترو مرة أخرى لنهاية الخط.

قطعت حبل أفكار العجوز نداءات بائع المصاحف القصير ذي الكرش الممتلئ والجلباب البني الكالح والشارب العريض الذي يخفي وجهه.

كان البائع دون أي تعبير على وجهه، يردد ندائه بصورة آلية دون أن يعبأ بذلك الضجيج الذي تصدره حركة عجلات «المترو» على القضبان الحديدية، يعبر أجساد الناس الملضومة

كحبات عُقد صنعته طفلة لم تتعد السابعة، في سهولة، وكأن جسده اعتاد اختراق أجساد الآخرين بحكم الممارسة، ينادي مرة أخرى:

- المصحف المفسر...المصحف المفسر بـ 7 ونص.

يلتفت شاب ملتح ويشير إليه طالبًا نسخة، بينما يدير الجالس بجواره رأسه في اتجاه شباك العربة متسولًا نسمة هواء باردة في يوم حار، ترتسم إبتسامة شاب لفتاة على الجانب الأخر من نفس العربة التي هدأت من حركتها استعدادًا لا ستقبال المحطة، بينما اشارت عجوز جالسة لا بنها الواقف بجوارها لشراء نسختين.

يفرك بائع المصاحف الأوراق النقدية في يده قبل أن يعيد باقي الـ ٥٠ جنيها للشاب، ثم يتحسس حقيبته معلنا:

- آخر مصحف معايا.. مين شاري؟

يبدو الامتعاض على وجه شاب سمين اصطدم به البائع دون قصد، فسقطت السماعة من أذنيه، تسللت الموسيقى على استحياء فطردها ضجيج المحطة، وأعادها صاحبها إلى أذنه بحثًا وهو يهز جسده منفصلًا عن الواقع، يغادر بائع المصاحف العربة في الثانية ظهرًا، بعد أن فرغت حقيبته، وهو يكلم آخر على هاتفه المحمول قائلا:

- أنا مروح بقى، خلّي الولاعات والكشافات تنفعك.

حاول العجوز اللحاق بالبائع ربما يدله على سبيل للخروج، لكن الباب- مثل كل مرة- أغلق قبل أن يصل إليه، ليسند رأسه على الشباك الزجاجي متابعًا البائع وهو يغادر المحطة مرتديًا بدلة سوداء فاخرة.

*****

لم يكن حسين يهتم كثيرًا بإلقاء القبض عليه، فعل ما فعل من أجل رندة، رغم أنه يعلن لنفسه- قبل الآخرين- أنه يكرهها بعد كل ما فعلته فيه، لكنه لم يستطع أن يدعها تخاطر بنفسها وحدها فشارك، وها هو يعود مرة أخرى للمشاركة من جديد رغم عدم اقتناعه، كان يعرف جيدًا أن نجاحهم في المرة الأولى محض مصادفة بينما اعتبرتها هي رسالة من السماء، وأرسلت له على صندوق رسائله على فيسبوك رسالة كان نصها: «رسالة من ربنا إن أول مرة تسمع كلامي بجد نكسب كتير»، كان مقتنعًا أنه ليس هناك ما يسمى بالرسائل، نحن فقط نصدق ما نحب أن نصدقه ويصوره لنا خيالنا، هي وحدها تعرف أنه يحبها، ربما تعرف أكثر منه هو شخصياً، هو الذي يتجاهل أن بعض الكراهية حب زائد عن حده، ربما يتجاهل هذا من أجل ألا يبدو ضعيفًا أمام نفسه، نخشى

كثيراً أن نكتشف ضعفنا ونتيقن منه لأنه قد يقودنا خلفه لا ظلم ما فينا، فقط قرر الذهاب مع بهاء وخالد بعدما تعهدا له أن يسانداه إذا ما عارضها.

وفي مقهى بول في الكوربة في مصر الجديدة وعلى نفس المنضدة التي اجتمعوا عليها المرة الأولى انتهى الحوار قبل أن يبدأ، كانت الأقنعة المغلفة بالأكياس السوداء قد استقرت في يد كل واحد منهم واتفقوا على الميعاد، وانتهت لحظة المعارضة الأولى بنظرة ساحرة من رندة لحسين، ابتسم لها بهاء وخالد وعض وليد على نواجزه.

كانت الحرارة لا تناسب هذا التوقيت من المساء، بدت الشمس وكأنها لم تغيب، عجزت التكييفات عن صناعة أي فارق واكتفت الأشجار في حديقة المقهى بدورها المرسوم الذي لا تهتز فيه ورقة واحدة.

انصرف حسين مسرعا وانصرف خلفه وليد غاضباً، بينما جلست رندة مع بهاء وخالد يتناولون عشاءهم الذي طلبوه بعد انصراف الآخرين، ربتت رندة على كتف بهاء وهي تقول:

- كنت متأكدة إنك ح تجيبه.

تعمد بهاء عدم النظر لوجهها واقترب أكثر من طبقه وهو يقول:

- رندة أنا مش بتآمر على صاحبي أنا عملت اللي فيه مصلحته.

غابت الابتسامة من على وجه رندة وسحبت يدها بسرعة وهي تقول ناظرة إلى خالد متمنية ألا يكون قد لاحظها:

- طبعا طبعا هو إنتوا في أصحاب زيكم، ناوي على ايه؟

أجاب بهاء بعدما ابتسم ابتسامة خجولة متعمدًا عدم النظر لها :

- ح اسافر بره مصر.

صرخ خالد قاطعا حديثه:

- إيه؟ تسافر برة مصر؟ قول لي بسرعة ازاي؟

ترك بهاء ملعقته وأشار له في حزم:

- آه ح اسافر يا خالد.

- المكان الوحيد اللي الناس بتسيب منه البلد هو مشرحة زينهم يا بهاء.

- وإيه المشكلة يعني في مشرحة زينهم؟

شاركتهما رندة الحديث قائلة بجدية:

- ايه ده؟ هو أنت ناوي تموت؟

قهقه بهاء وارتفعت ضحكته لدرجة لفتت أنظار من حوله قبل أن يرد قائلا:

- مساكين والله من ساعة قفل المطارات وإعلان النظام مصر منطقة مغلقة خوفًا من المخططات الخارجية والسياح الجواسيس وكل الكبار بيسافروا من هناك، كان لا زم يبقى في بديل يا عُبْط.

تدلى فكا رندة وخالد، وبدا عليهما الذهول، فأكمل بهاء بعد أن عاد إلى طعامه:

- تكونوش فاكرين إن الكبار في البلد دي قاعدين فيها مش بيسافروا؟ ولا الملك اللي كان هنا بيتغدي معانا بسلامته جاي بري عن طريق ليبيا، كله من وإلى مشرحة زينهم يعود.

*****

اجتاحت البلاد في السنوات الخمس الأخيرة موجات من أنباء القبض على شبكات تجسس أجنبية أجبرت دول العالم الغربي على توجيه تحذيراتها لمواطنيها من السفر إلى مصر، ما اضطر وزارة السياحة إلى تنشيط الحملات السياحية تجاه الدول العربية التي استجابت للحملة حسب تقديرات شركات السياحة العالمية، وضاعفت زياراتها لتركيا ولبنان ورويدًا رويدًا، ومع تراكم أوامر المنع من السفر وإحكام جهاز أمن الدولة قبضته على تصاريح السفر للمواطنين، قلت الحركة في المطار وصار عبئًا على الدولة قبل أن يخرج الرئيس بفكرة اقتصادية

طبية عظيمة بتحويله إلى مستشفي للعلاج النفسي يضم بين جنباته كل النزلاء الذين ضجت بهم مستشفي العباسية للأمراض النفسية، ويساعد في العلاج، خاصة بعدما يظن المرضى أنهم على وشك المغادرة، بينما تم تحويل مستشفي العباسية إلى المقر الرسمي لحملة «مصر الحلم» التي أطلقها الرئيس بنفسه في حضور حكومته بالكامل.

*****

«3 أغسطس»

عندما غرقت القاهرة في أمطار من بول

صدقت هيئة الأرصاد للمرة الأولى، الأمطار تغرق القاهرة، بينما يغادر فؤاد مكاوي مدير مكتب البريد سيارته اللادا الحمراء وينتظره شريف غنيم هذه المرة بالمظلة ليحمل الحقيبة ويظلل على مديره حتى لا يبتل، يهز فؤاد رأسه في رضا ويسرع الخطوات تجاه باب المكتب الجانبي.

الشارع يخلو من المارة بعد تحذير الأرصاد من احتمال حمضية الأمطار، بينما يتشبع الجو برائحة غريبة يعجز فؤاد عن تذكرها، يسأل مرءوسه الغارق في المياه، بتأفف:

- ريحة الجو غريبة قوي يا شريف بتفكرني بريحة تحت الكوبري.

يرد الموظف وعلى وجهه ابتسامة لزجة اكتسبها داخل سياق العمل الحكومي واحتفظ بها على وجهه كأحد النماذج الثابتة وأجاب:

- دي ريحة صنان، طرطرة يا فؤاد بك.

ظهر الامتعاض على وجه الرجل الجاف الذي لم تبلله الأمطار بفضل حماية مظلة شريف الغارق تمامًا، وقال:

- إخص الله يقرفك.

ثم دلف لداخل المبنى ليجد في انتظاره صاحب قناع «باظ

يطير» على عتبة الباب الجانبي شاهرًا مسدسه في وجه عبدالغفار البواب، الذي ركع على ركبتيه مبتهلًا لله متضرعًا لصاحب المسدس ألا يؤذيه، يحاول فؤاد العودة بظهره ليفاجأ بفوهة رشاش في ظهره يرفعه آخر يحمل قناع «شلبي سوليفان»، يرتجف بينما يخفض شريف غنيم مظلته فجأة، ينظر إليه فؤاد مكاوي في غضب متناسيًا المحيطين، بينما لا يلحظ موظفه الشاب تلك النظرة بعد سقوطه على الأرض مغشيًا عليه.

دقيقة واحدة احتلها الصمت تمامًا بين الجميع قبل أن تظهر سعاد موظفة المكتب السمراء بين يدي حاملة قناع «السمكة دوري» وحامل قناع «وودي»، تبكي بلا توقف وتعدد وتتوسل بأسماء أبنائها وإخوتها، يحملون المال في حقائب تشبه حقائب المرة السابقة، يتحركون في اتجاه سيارة وقفت فجأة في الخارج يقودها حامل قناع «كرة البعبع»، يتحركون في وقت واحد مشهرين أسلحتهم في وجه الثلاثة، ويقفزون في السيارة التي تنطلق بأقصى سرعة بينما انشغل عبد الغفار البواب في محاولة إخفاء خط البول الذي ظهر أسفله، مديرًا الجزء المبلل من جلبابه بعيدًا عن العيون، وفؤاد مكاوي يركل شريف غنيم بكل ما فيه من غضب كي يفيق، وسعاد تلطم دون توقف.

صرخت رندة في فرح وهي تنزع قناع السمكة دوري، بينما بدأ الجميع في خلع أقنعتهم في هدوء، سألت بهاء في جزل:

- كام المبلغ؟ كام تقريباً؟

ضم بهاء قبضة يده في فخر وهتف قائلاً:

- ضعف المرة اللي فاتت.

ثم خرج من الشباك ليصرخ في فرح، أدار حسين مفتاح كاسيت السيارة ورفع الصوت لأقصى درجة وفرقة «عواميد النور» تغني «سيرة الإراجوز»:

- «حُزن يا بقّال ورا الجامع. . هات بنص ريال عسل ف الكوز

خد سنين الجري وسنيني.. هات لى سن غزال دهب عيني. .

قطّع الأسفلت شراييني.. هات بياض القطن شاش اللوز

دا اللي كان عيِّل بقا شاعر.. واللي كان ضاحك بقا أراجـــووووز»

ثم مد يده ليغلق شبابيك السيارة وهو يصيح بصوته ليصبح مسموعا مع الأغنية قائلا:

- ادخل يا بهاء الدنيا بتمطر طرطرة.

*****

«صاحب الحقيقة»

لا تبكِ.. لكنه بكى دموعًا سوداء

يعرف أن دموعه سوداء اللون، لهذا لا يبكي أبدًا أمام الناس، خاصة والحياة بين جدران المترو لا تدع له مجالًا لأي خصوصية، اعتاد أن يبكي فقط في نهاية الخط، الكل يبدو سعيدًا دائمًا بالوصول والنهاية بينما تبقى تلك هي لحظاته الأكثر إيلامًا.

لا يدري لماذا تذكر أمه في تلك اللحظة، تلك المرأة التي ظل طيلة حياتها يبكي حليبًا فتخفيه عن عيون الناس، قبل أن تقتلها- رجما بالحجارة- مجموعة من أبناء الحي عقب خروجهم من زاوية المسجد أسفل منزلهم، يذكر وعمره لا يتعدي خمس سنوات أنهم كادوا يقتلونه معها ويحرقون البيت، لكن أميرهم اصطحبها ليرجمها على مسمع من أهل الحارة، وأن أخاه الأكبر فر منهم متوعدا إياهم بالقتل.

قتلوها أمام عينيه بينما كانت تنظر إليه راجية إياه ألا يبكي، اخترق الطوب جمجمتها وسالت دماؤها وبقيت على عينيها نظرة لا تبكي، لكنه بكي، وكانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها دموعه السوداء التي لا حظها الحضور فتناسوا جثة القتيلة وانشغلوا باللعنة التي أصابت الطفل، صرخ أحدهم في وجهه.

- ولاد الزنا دموعهم سودا.

صرخت أخرى:

- أدي خلفة كام راجل سوا.

لم يفهم ما يقولون، زحف واحتضن جثمان أمه وبكى حتى أذابتها دموعه، ثم انسحب بهدوء خارجًا من الحارة دون أن يتبعه أحد خوفًا من اللعنة.

عاد أخوه يومًا ما وقتلوه ودفنوه بعيداً، بينما عاش منتقلًا من رصيف لآخر حتى توسط له أولاد الحلال من أجل العمل في النظافة في هيئة المترو الجديد، والذي ظل به حتى فشل في مغادرته.

تأمل مرة أخرى انعكاس وجهه في المرآة، ذكره الوجه المثلث وملامحه بوجه أمه، الشعر الكثيف، وتلك العينان الغائرتان الضيقتان اللتان تكادا تختفيان خلف ثقل ظل حاجبين كثين قهرا صغر حجمهما، وأنف صغيرة وفم ذو شفتين رفيعتين تنمان عن عصبية ما في عصر غابر.

رآها في انعكاس المرآة، مد يده ليلمسها رغمًا عنه، أخرجت ثديها لترضعه، اقترب منه دون تفكير، صدمه الزجاج البارد، بكى مرة أخرى ثم رفع رأسه للسماء متمتمًا داعيًا بالرحمة

*****

«سفر القربان»

انتشت كربلاء وغادر القتلة بالنصر..
وكأن النصر قد عقد حِلفًا مع الظالمين

خرجت زينب تعدو نحو ساحة المعركة، تبحث عن جسد أخيها الحسين بين القتلى يوم كربلاء غير عابئة بالأعداء المدججين بالسلاح، فلما وقفت على جثمان أخيها العزيز الذي مزقته السيوف ليغدو جثة بلا رأس مقطع إربًا إربًا، جعلت تطيل النظر إليه ثم وضعت يدها تحت جسده المقطع ورفعته نحو السماء وهي تدعو بمرارة قائلة (اللهم تقبل منا هذا القربان).

غادر القتلة بالنصر، وكأن النصر قد عقد حِلفًا مع الظالمين، لا يذوقه إلاهم، صنعوا ممالكهم وملكوا العالم حتى أزاحهم من هو أكثر ظلمًا منهم، فقط بقى دم الحسين ليطهر الأرض في كربلاء، ومن بعدها لم يعد حق شهيد قط.

ومع كل شهيد سقط في كل مكان حول العالم ومع كل نقطة دماء طاهرة بريئة شربتها الأرض انتشت كربلاء وصارت مليون كربلاء، قدم الحق ملايين القرابين بلا نتيجة.

احتل الظلم عرشه وعاث في الأرض فساداً، انحنى له البشر وقبلوه واكتفوا بمصمصة شفاههم لكل شهيد جديد.

صار الحق طريدًا تسانده الفئة الأضعف، وأضاعت الرياح دعوة زينب فلم تصل أبداً.

استيقظ كل مؤذن فجر يوم الحادي عشر من المحرم بعد مذبحة عاشوراء بعد أن استبدل قلبه بحنجرة أخرى، ارتفع أذان الفجر للمرة الأولى ليغطي الناس آذانهم ويسقطون في نوم عميق، خلت المساجد إلا من مَن رحم الله.

وكأنه كان قربانًا للفناء، فناء العدل والحب والإيمان.

*****

«4 أغسطس»

ضعيفًا هزيلاً مثل حصان كريم ساقته الظروف ليخدم بائعًا جوالًا.

ردد مذيع الإذاعة نبأ سرقة مكتب البريد للمرة الثالثة على يد عصابة ترتدي أقنعة كارتونية في نهاية نشرة الأخبار، ابتسم بهاء وأشار لحسين الذي مد يده لتغيير المحطة في راديو سيارته.

قال بهاء:

- ماكنتش موافق نعملها تاني مرة أدينا عملناها تالت مرة، وكل واحد فينا بقى معاه حوالي ٢٠٠ ألف جنيه في ٣ مشاوير.

نظر حسين طويلًا في مرآة سيارته وأجاب بعد صمت:

- وبعدين يا بهاء؟

لم يجب بهاء على صديقه، وانشغل أثناء دوران العربية بذلك المخبر الذي وقف على ناصية الطريق الموصل لبيته ممسكا بـ«آي باد» مخروم ينظر من خلال الثقب الموجود مكان الكاميرا الخاصة به للشارع، مد حسين يده لينكز بهاء قائلا:

- ماردتش ليه يا عم أنت؟!

ابتسم بهاء وأشار بيده تجاه المخبر المنزوي في ناصية الشارع يحاول التماهي مع الحائط من خلفه حتى لا يبدو ظاهرًا للعيان وقال:

- بتفرج على المخبر اللي واقف علشان ديلرات البرشام.

ألقى حسين نظرة وعاد مرة أخرى لمقود سيارته وهو يقول غاضباً:

- أنت مش معايا خالص.

- ياعمنا معاك والله، بس عايز اقول لك حاجة مهمة، فاكر الجملة اللي كتبتها مرة ع الفيسبوك بتاعة «بعض الناس كالأحلام يسقطون من الذاكرة بمجرد انتهاء علاقتنا معهم»، ما تعمل كده مع رندة وأنت ترتاح.

ضغط حسين مكابح سيارته بعنف، فتوقفت بعنف بعدما أطلقت صريرًا عاليا، أجبرت الحركة المفاجأة بهاء على التشبث بإطار نافذة السيارة وارتسمت ملامح الذعر على وجهه قبل أن ينطق حسين غاضباً:

- أنت بتكلمني في إيه وأنا باكلمك في إيه.

تماسك بهاء قليلا وعاد إلى وضعه الأول بعد توقف السيارة ثم أشعل سيجارته وأجاب متحاشيًا النظر لوجه صديقه:

- خلينا نتكلم بصراحة يا حسين، أنت مشكلتك في القصة دي كلها رندة، انسى بقى وعيش حياتك واتبسط أنت مش محتاجها ومش محتاج توجع دماغك بيها.

أجاب حسين وهو يعاود الحركة بالسيارة دون أن يلتفت لبهاء:

- رانده مابقتش حلم، دي اتحولت لكابوس.

- حتى لو كابوس يا صاحبي ح يعدي والدنيا ح تزهزه والرزق حيبقى عال.

- تسعة أعشار الرزق في الرضا يا حمار وأنا مش راضي، اللي مش بنعرف ننساهم ونتجاهلهم ساكنين روحنا علشان يوجعونا.

*****

أعاد وليد عد النقود للمرة الثالثة على منضدة «الأنتريه»، بينما انشغلت رندة بمكالمة طويلة مع إحدى صديقتها، هز رأسه بيأس فنظرت له بحدة وكتمت صوت هاتفها وهي تقول:

- ما تبطل عبط يا ابني انت.

- ليه يعني؟ إنتي شايفة إنه طبيعي بهاء وحسين يا خدوا كل واحد ٥ الاف جنيه زيادة، كانوا عملوا ايه زيادة يعني؟

اعتذرت رندة للطرف الآخر من الهاتف، وأغلقت الخط وهي تقول في حزم:

- بقول لك إيه يا وليد لو مش عاجبك كفاية كده عليك معانا.

ألقى وليد برزمة النقود من يده وقال:

- أنتي عارفة إنها مش مشكلة فلوس يا رندة أنا باغير.

- تغير من إيه يا بني آدم؟ بهاء طمع وكان لازم أكسر عينه، اشمعنى خالد ما اتكلمش؟

- خالد ده مش في الدنيا ح تلاقيه بيطيَّر عصافيره الورق دلوقتي في أي شارع.

ابتسمت رندة ونظرت بعيدًا وهي تقول:

- متغيرش يا ويل، هانت يا بابا.

*****

يبدو الليل في تلك المنطقة مختلفًا عما حوله أشد سوادًا وحلكة، تخشى القطط والكلاب ولوج هذه المنطقة فتقف على حدودها لتنبح وتموء دون أن تملك الشجاعة لا جتيازها وكأن حتى الحيوانات امتلكت العقل ليغزوها الخوف والرهبة.

بدا عمود النور وحيدًا ضعيفًا هزيلًا مثل حصان كريم ساقته الظروف ليخدم بائعًا جوالًا، خرج النور منه على استحياء لينير ساقه فقط وتبقى المنطقة حوله مظلمة وكأنها تمت صباغتها بمعرفة مصبغة أمينة حريصة على زبائنها، أشعل خالد مصباح هاتفه المحمول ومضى في طريقه ينقل قدميه في صعوبة، وكأنه عالق في الظلام الذي يلفه، يتبدد ضياء الهاتف في حلكة عجيبة عصية على الضوء، يعيد النظر في هاتفه ويطلب ذلك الرقم غير المسجل الذي كلمه من قبل متسائلًا:

- أنا دخلت أهو إنت فين؟

يرد صوت بارد يحمل بعدًا معدنيًا بلا أي إحساس قائلا:

- ح اجي لك عند أكتر عمود منور.

يتلفت خالد حوله محاولًا البحث عن عمود نور يبدو مختلفًا وأكثر إضاءة مما حوله، تعجز عيناه عن التفسير، تنكمش قبضته تلقائيًا حول عصفور أوريجامي وضعه في جيبه، يتشبث به وكأنه قادر على إنقاذه وهزيمة الخوف الذي بدأ يسري في أوصاله من فرط الظلام الذي كاد يعصف بروحه.

تهبط يد ثقيلة على كتفه يقفز على أثرها مفزوعًا قبل أن تمسك به اليد بشدة ويسمع صوتًا يعجز عن تفسير ملامح، قائلا:

- كويس إنك عرفت توصل، بلاش خوف وخلص.

- حضرتك الأمين مخلوف.

- أيوة حضرتي زفت.. إنجز يا ابني.

- حضرتك أنا من طرف عادل بك زكي وجاي لك علشان محتاج أسافر.

يشد أمين الشرطة يد خالد ويجذبه في اتجاه ما، يتساءل خالد كيف يعرفه في تلك الظلمة الموحشة قبل أن يقطع الرجل أفكاره ويقول:

- تعالى نشرب شاي في مكتبي ونشوف حنعمل لك إيه.

يقترب الاثنان من السور الذي أنشأته الحكومة مؤخرًا حول مشرحة زينهم، يبدو اللون الأخضر الذي اكتست به الجدران مقيتًا مع الظلام، يقطع الصمت صوت شد أجزاء لسلاح ما، يرتعد خالد فيعلو صوت الأمين مخلوف:

- شاتلاند يا دفعة.

يظهر شبح جندي يحمل سلاحه في وضع استعداد، ترتخي اكتافه مع سماع كلمة السر وصوت الأمين مخلوف، ويسمح لهما بالمرور، يجتازان السور من بوابة سقط نصفها تحت الأرض ليصعب تمييزها نهاراً، ثم يدلفان إلى مكتب خشبي بجوار السور تماماً، يشير الأمين لجندي آخر طالبًا منه عمل الشاي.

يتأمل خالد المكتب الذي احتلت حوائطه ملصقات دعاية لشركات طيران، فيقاطعه الأمين مخلوف:

- عايز تسافر فين؟ وإمتى؟

- يخرج خالد جواز سفره ومبلغ خمس٥ آلاف جنيه، ويضعها أمامه وهو يقول:

- أنا أخدت شنجن وعايز أسافر فرنسا.

يشير الأمين مخلوف للجندي ليضع كوب الشاي أمام خالد

الـذي التقطـه بسرعـة لـيروي العطـش الـذي أوجعـه مـن فـرط الخـوف، يشـعر بطعـم دمـاء في فمـه، يخـرج منديـلًا ورقيًـا محـاولًا تحسـس أي إصابـة في فمـه قبـل أن يجذبـه اللـون الأحمـر المميـز للـدم لذلـك السـائل السـاخن في الكـوب.

يصيبـه الفـزع فيأخـذ نفسـه محـاولًا عـدم التقيـؤ قبـل أن يقـول الصول:

- علشـان تخـرج عـن طريـق مشرحـة زينهـم لفرنسـا مـش محتـاج شـنجن و٥ تـلاف جنيـه، محتـاج ٥٠ ألـف جنيـه وصـورة جـواز السـفر وشـهادة وفـاة اعـرف حـد يخلصهـا لـك بـ ٢٠ ألـف جنيـه.

*****

اقتربـت الشـمس مـن المغيـب في يـوم حـار جـداً، بدت الشـوارع- التـي أنهكتهـا الحـرارة- سـوداء، كان الأسـفلت الأسـود قـد تحـول بفعـل الحـرارة العاليـة إلى مـا يشـبه العجـين لحظـة الاقـتراب مـن الاسـتواء، يعكـس لونـه ليهـب الجـو ظلمـة خفيفـة تحـاول التبشـير بقـدوم الليـل مـع رائحـة خانقـة بقيـت مـن سـخونته والأمطـار البوليـة التـي سـقطت في الليلـة السـابقة، ارتفـع صـوت بائـع المانجـو الجائـل الـذي يتحـرك مـن الشـارع الرئيسـي في اتجـاه الشـوارع الجانبيـة في مـصر الجديـدة قبـل نـادي هليوبوليـس

وسور قصر الاتحادية، ينادي بصوت شجي على بضاعته:

- يا «صيف» قد أزف الرحيل

وأحرك الصيف الجليل

فتأهبي يا نفس لا يلعب بك الأمل الطويل

فلتنزلن بـ«مانجة» ينسى الخليل به الخليل

وليركبن عليك فيه من «الغدا» ثقل ثقيل

قرن "«الغداء» بنا فمن يبقى «الرفيع» ولا «التخين»

لا تعمر «الدماغ» إذا ليس إلى «المانجة» سبيل.

اقترب عجوز يرتدي بدلة زيتية بصفين من الأزرار، وقميصًا «زيتوني غامق»، ارتدي على رأسه قبعة «بيسبول» واسعة أخفت نصف وجهه، فلم يشر إلى سنه سوى بعض الشعيرات البيضاء الفارة من قهر القبعة، سائلا البائع الشادي:

- بكام المانجة يا عم الحكيم؟

التفت البائع للصوت المسرسع الذي قاطع غناءه، واكتفي بالإشارة إلى اللافتة المعلقة على العربة الكارو، وتشير إلى أن السعر الكيلو180 جنيها، ظهر الامتعاض على وجه الرجل وأشاح بيده وهو يقول مستدبرًا البائع:

- احنا في أغسطس موسم المانجو دي في كل حتة بـ 150

ابتسم البائع وأكمل سحب عربيته في اتجاه ظل شجرة سقط

سهوًا من الشمس لحظة لملمة أشعتها استعدادًا للمغيب، بينما كانت دوريات الحرس الجمهوري تستعد لتبديل نوبتجياتها على سور القصر، استعاذ البائع من الشيطان الرجيم بينما كان يلقي نظرة على «تفتيش السليبات» المسائي وتمام اللون الأحمر، تحسس رغمًا عنه لباسه وابتسم عندما تذكر لونه الأبيض الأصلي الذي خرج به من منزله في حي المرج قبل أن يتحول للأسود بعد ساعة واحدة من السير في طرقات القاهرة في هذا الجو الحارق، وبدأ في النداء على بضاعته مرة أخرى بأبيات الشعر ذاتها.

غادرت رندة مدخل عمارتها السكنية في اتجاه سيارتها قبل أن يستوقفها صوت البائع وتلك الأبيات التي يشدو بها، وضعت حقيبتها في السيارة وأدارت المكيف على أقصى درجة وأغلقت الباب واتجهت للبائع قائلة:

- ياعم يا بتاع المانجا مين اللي محرف الشعر ده؟

لم يرد البائع سوى بابتسامة صغيرة فأكملت وهي تتفحص المانجو التي جذبتها رائحتها النفاذة

- ده شعر أبو العتاهية يا عمنا، وفي الزهد، أنت قلبته للمانجو، إنت خريج إيه؟

اقترب منها البائع الشاب خافضًا طرف جلبابه احترامًا للكلام

مع سيدة، وقال بصوت خفيض:

- حضرتك ناوية تشتري ولا تسألي بس، طالما أبوالعتاهية مش رئيس وزرا ولا ريس يبقى ما لوش حاجة عندي.

ارتفعت ضحكة رندة، وقالت بعد أن سحبت حقيبة بلاستيكية وبدأت في اختيار حبات المانجو:

- هههههه يا ابني انت لو مش خريج كلية عسكرية ولا شرطة أي عيل بتفة على كتفه يبقى له كل حاجة عندك، ده يقدر يفتش على لباسك ذات نفسه.

- أنا ماعييش ابتدائية يا مدام، ح تاخدي كام كيلو.

هزت رندة رأسها وقالت في استسلام:

- اوزن لي 10 كيلو، حسين بيحبها قوي.

*****

«5 أغسطس»

رحلة البيه من السكاكيني للتجمع.

عاد فؤاد مكاوي إلى منزله في حي التجمع، اعتنى كعادته بصف سيارته اللادا الشهيرة في الحي لكونها السيارة الأقدم على الإطلاق، نصحه أصدقاؤه- قبل أبنائه- بالتخلي عنها، لكنه أبدًا لم يوافق، كان يعتبرها ميراثًا يليق بأسرته، لم يكن أحدهم يدري ذلك الشعور الذي يكنه لسيارة رافقته منذ المراهقة، حين ورث والده الثري جدًا والذي توفي في حادثة غرق عبارة كانت في طريقها من السعودية لمصر، مات الأب بعد أكثر من ٢٠ سنة في الخليج، تاركًا أسرته المكونة من فؤاد وأخته فؤادة، وأمه المرأة التي تعملت القراءة والكتابة عن طريق التلفاز ودروس الأستاذ عبد البديع القمحاوي، لم يعرف وظيفة والده بالضبط، فقط كان يعلم أنه لم يكمل تعليمه العالي وسافر للسعودية بعد زواج عمته من رجل خليجي، وكان سفره بعقد عمل جيد أحد بنود إتمام الزواج، لم تعد تلك العمة نهائياً، وتتحاشي أمه الكلام عنها، تطالبه فقط بقراءة الفاتحة وتتجاهل تساؤلاته حول الفاتحة التي لا تقرأ سوى للمتوفين.

عاد الأب بعد خمس سنوات منذ سفره للمرة الأولى، تزوج والدته- جارتهم في حي السكاكيني- وألقى بذرته وسافر لخمس سنوات أخرى لم يُر خلالها ولم يسمع صوته، ألقى

بذرة أخته خلال ثلاثة أسابيع قضاها، وغادرهم لعشر سنوات هذه المرة، لم يتصل خلالها مرة واحدة إلا حين علم بإصابة ابنته بشلل الأطفال، لا يعلم لماذا كان عائداً، كل ما عرفه عن أب توفي وهو في التاسعة عشر في كلية التجارة جامعة عين شمس، أن والده ترك ملايين الجنيهات في أحد البنوك، وأن والدته التي فقدت نصف عقلها من الوحدة وجبروت طفلتها القعيدة سوف تكون وصية عليه وعلى أخته في تلك الثروة التي هبطت من السماء.

نجح حينها في شراء السيارة اللادا بعد مفاوضات مع أمه والمجلس الحسبي، صار يملك للمرة الأولى شيئًا باسمه، قادها فجرًا لشاطئ النهر ووقف فوق غطاء محركها الصلد وصرخ بكل ما يملك من قوة قائلاً:

- العربية دي باسم فؤاد حسين مكاوي يا بشر.

لم يكن له أصدقاء، لم تكن له حياة بالمعنى المفهوم، كان يعرف أنهم يطلقون عليه في الكلية لقب «الموظف»، يأتي في موعد ويرحل في موعد، يرتدي نفس الزي لكل يوم، زي الأحد يبقى لكل الآحاد، وزي الإثنين يبقى لكل أيام الإثنين، كان يرفض مبادلة دفاتر محاضرته مع الزملاء ويحافظ على مواعيد محاضرته بالثانية، ولا يمر بسلم الجامعة ولا شوارعها

إلا في طريقـه للمحـاضرات.

لكنـه أبـدًا لم يكـن متفوقـاً، كان يذاكـر لأربعـة سـاعات يوميًـا، ويتضاعـف هـذا الرقـم لثمانيـة واثنتـي عـشرة سـاعة أحيانًـا، لكـن تقديـر «مقبـول» لم يفـارق نتيجتـه.

إلا أن هـذا لم يكـن مـن أحلامـه، وكان حلمـه الوحيـد أن يكـون سـليل أسرة أرسـتقراطية مثـل تلـك التـي كان يتابعهـا عـلى شاشـة التليفزيـون في أفـلام «الأبيـض وأسـود».

لهـذا قـرر- دونًـا عـن كل جيلـه- الاتجـاه للقطـاع العـام ودفـع رشـوة كبـيرة جـدًا للحصـول عـلى التعيـين في هيئـة البريـد، لم يكـن الراتـب الحكومـي يعنـي لـه شـيئاً، بحـث كثـيراً بعـد وفـاة والدتـه عقـب تخرجـه بعامـين عـن قـصر في أي مـكان ليشـتريه ويدعيـه إرثًـا، لكنـه فشـل فاشـترى أرضًـا في التجمـع حـين كان جـزءًا أصيـلًا مـن الصحـراء وابتنـى قـصرًا منيفًـا ألقـى أختـه في إحـدى غرفـه الثمانيـة عـشر مـع ممرضـة يدفـع لهـا راتبهـا سـنويًا، حتـى لا تذكـره بسـاكنة تلـك الغرفـة.

لم يتـزوج إلا بعـد أن تجـاوز الأربعـين لينهـي تمامًـا أي محاولـة للوصـول لأصولـه المتواضعـة، اشـترى لوحـة لا حـد أرسـتقراطي مـا قبـل ثـورة يوليـو، وعلقهـا في مدخـل القـصر مدعيًـا أنهـا لجـده الباشـا الـذي كان استكشـاف الصحـراء هوايتـه لدرجـة أنـه بنـى

قصرًا على تخوم القاهرة قبل أن يقرر البارون إمبان بناء مصر الجديدة، بل وادعى أنه من دل البارون على مكانها واقترحه عليه، كما نجح من خلال اختياره لعمارة قصره وطرازها والألوان الكالحة التي اختارها في أن يضفي جوًا من القدم والعراقة لقصر عمره لم يزد عن عشر سنوات.

وفقط يوم ماتت أخته- لسبب لا يعلمه- تقدم للزواج من إحدى فتيات المجتمع الراقي، لينجب منها ابنه أشرف وابنته جميلة، ورغم كل هذا عجز عن الاستغناء عن سيارته اللادا ووظيفته الحكومية، وبقى صامتًا أمام عشرات الأسئلة التي انهارت على رأسه في كل مناسبة من أولاده وزوجته وجيرانه، لماذا بقيت في الحكومة؟ ولماذا لا تغير سيارتك القديمة؟

حتى ذلك المساء في الخامس من أغسطس بعدما دخل بيته عقب سرقة مكتب البريد الذي يديره للمرة الخامسة خلال خمسة أيام من نفس العصابة، لم يقم البوليس بالتحقيق هذه المرة كما فعل في المرات الأربعة السابقة، فقط اقتاد شريف غنيم الموظف الذكر الوحيد في مكتب البريد ومعه دراجته النارية لغرفة النفخ في القسم، طالبين منه العودة لمنزله، كان يعلم جيدًا أن الإكرامية الضخمة التي دفعها هي ما عادت به.

كان يدرك أنهم يعرفون أن رجلًا بهذا الثراء وله تلك الأصول ليس محلًا للشك، لم يشعر بالتعاطف مع موظفيه نهائياً، وجال في خاطره أن في المنفاخ لحكمة لا يعلمها إلا ضباط البوليس، كل ما كان يشغله في نهاية ذلك النهار تلك الجملة التي قالها له اللص الذي ارتدى قناعًا لأحد أبطال شخصيات أفلام الكارتون التي لا يشاهدها، والذي خاطبه مستهزئاً:

- مش ناوي تغير اللادا بتاعة السكاكيني يا فؤاد بك؟

لم ترعبه السرقة رغم تكرارها، ولم تدهشه كما أدهشه أن يعرف أحدهم قصة السكاكيني، ذلك الحي الذي غادره قبل ما يزيد عن ثلاثين عاماً، وأخفي- بدفن أخته- آخر صلة له به.

للمرة الأولى كان على استعداد لأن يجيب عن سؤال أي شخص عن السيارة والوظيفة، كان على استعداد لبيعها والتقاعد حرصًا على ما قضى عمره في نسجه، كان يخشى أن ينهار كل شيء مع اقتراب النهاية، دخل قصره في هدوء، نادي على ابنه أشرف الذي انشغل بلعب البلاي ستيشن مع أحد أصدقائه، وقال له:

- عايزك تبيع العربية اللادا في أسرع وقت.

اتسعت عينا أشرف من فرط الدهشة وصرخ بصوت عال:

- يامامي إلحقي دادي أكيد عيان.

نظر لولده الشاب الطالب في الجامعة الأمريكية بحدة وقال في حسم:

- اسمع الكلام وخلصني.

- بس يا داد ماحدش ح يشتريها.. دي محتاجة متحف.

نظر له أسفًا وقال:

- خلاص أنا ح اتصرف.

*****

عجزت رندة عن تهدئة وليد الذي هاج وماج وحطم إحدى مزهرياتها الموجوة في صالون منزلها، حاول الاقتراب منها فأشارت له بأحد سكاكين المطبخ مهددة فقال:

- يعني بعد كل ده يا رندة تروحي تباتي مع حسين وتناموا سوا، أحا يا رندة.

- بقول لك يا حمار رحت له آخد البنت كانت نايمة وهو كان قاعد يشرب، شربنا سوا صحيت لقتني متنيلة في حضنه، مالحقناش نتكلم علشان كنا رايحين ننفذ.

- كمان جايين تنفذوا معانا نجسين؟! عايزين تنحسونا؟!

أطلقت رندة صوتًا من حلقها وأنفها وهي تقول متوعدة:

- وحياة أمك اللي كانت فكرة القبلة بتتلضم؟! أنت أبوك أول مرة سمع الأذان يوم صلاة جنازته، نجسين يا حرامي يا طاهر؟!

- ماتتوهيش في الكلام يا رندة، أنا مش ممكن أسكت.

جلست رندة على أريكة الصالون وألتقطت «الريموت كونترول» لتفتح التليفزيون وهي تقول دون اهتمام:

- لا طبعا مش ح تسكت يا وليد، حتنزل حالًا تشتري طقم فازات سينيه مكان اللي كسرته.

صرخ وليد معترضاً:

- نعم يا أختي؟!

نظرت له رندة متحدية وهي تقول بهدوء وحسم:

- ح تنزل تشتري الفازات دلوقتي حالا يا وليد، سمعت؟

نهض وليد غاضبًا في اتجاه باب المنزل قبل أن توقفه وهي تنظر لشاشة التليفزيون قائلة:

- ماتشتريش من غير ما تصور وتبعت لي على واتس أب وأوافق، أنت ذوقك وحش.

أغلق وليد الباب خلفه في عنف محدثًا ضجة مرتفعة لتنهار رندة في نوبة ضحك طويلة وهي تقول في سعادة:

- أه منك يا حسين في السرير، لو كنت أملك ماخرجكش براه، كنت حتفضل أحسن جوز في التاريخ.

ثم اعتدلت والتفتت لمرآة معلقة على الحائط يسارها ونظرت لنفسها وقالت:

- هـو الواحـدةماينفعـش يبقـى عندهـا جـوز للسريـر، والتـاني للمشـاوير، والتالـت للخروجـات، والـذي منـه، زي الهـدوم كـده يعنـي؟ قطيعـة.

بينـما كان التلفـاز يذيـع برنامجًـا حواريًـا استـضافت فيـه المذيعـة أحـد خـبراء علـم الأحيـاء، والـذي أخـذ يتحـدث عـن ظاهـرة الخصيـات الأربعـة، متوقعًـا أنـه في خـلال الـ50 عامًـا المقبلـين أن يتحـول المصريـون إلى مجموعـة مـن «البيضـان» التـي تسـير عـلى قدمـين.

*****

انطلقـت سـيارة البوليـس بسرعتهـا القصـوى عـلى الحـارة الحمـراء المخصصـة لسـيارات البوليـس في طريقهـا لمنـزل شريـف غنيـم موظـف مكتـب البريـد، إلا أن حادثـة مروريـة أجبرتهـا عـلى اتخـاذ الحـارة الخـضراء المخصصـة للهيئـات القضائيـة، لكـن بعـد دقيقتـين اسـتوقتها دوريـة قضائيـة طالبـة منهـا العـودة لحارتهـا، أشـار الضابـط للجنـدي الـذي يقـود السـيارة طالبًـا منـه اتخـاذ الحـارة الصفـراء المخصصـة للقـوات المسـلحة، ظهـر الـتردد عـلى الجنـدي فدفعـه الضابـط ليحتـل مكانـه في القيـادة وهـو يـصرخ:

- هو احنا بنلعب يا ابن الوسخة؟! عندنا شغل.

- ياباشا دوريات الجيش ماتعرفش أبوها.

تذكر الضابط لوهلة حادثة إطلاق النار على أحد زملائه من دورية عسكرية خلال اختراق مماثل للحارة الصفراء، وكذلك تلك الشكوى المقدمة في المحاكم المختلطة العليا لإيقاف أحد زملائه لاختراقه حارة القضاة الخضراء.

سرح قليلًا ملقيًا نظرة على الحارة السوداء الضيقة التي يبلغ عرضها ربع حجم كل حارة من الحارات الملونة حيث تراكمت سيارات العامة في صف واحد، ثم قال للجندي في عجالة

- إدى إشارة لأول كمين عالحارة السودا يوقف ولاد الوسخة دول على ما نعدي من حارتهم ونرجع لطريقنا.

*****

أغلق حسين هاتفه بعدما يئس من الوصول لبهاء، طلبه للمرة العاشرة كان يرغب في رفيق لزجاجة ويسكي ومشاهدة فيلم السهرة على MBC2 لم يكن يحب الشراب وحيداً، نوبات الاكتئاب التي يسببها شرب الويسكي في الوحدة لا يبددها سوى غزوة جنسية أكثر إحباطًا من الوحدة، فتح غطاء الزجاجة عازمًا على شرب كأسًا واحدة ومعاودة البحث عن نديمه، إلا أن مع إنهاء الغطاء لعناقه الأبدي مع فم الزجاجة كان رنين هاتف حسين المحمول يعود للحياة معلنا اسم بهاء على شاشته.

سقط الغطاء من يد حسين المتعجل على الرد وهتف بصديقه غاضبا:

- أنت فين يا حيوان؟

- ياعم فرح ابن عمتي ومتربيين سوا، وانت عارف إنهم بيعتبروني مصور العيلة وكان لازم أنزل.

- طيب قدامك كتير؟ ازازة الويسكي ح تطير.

- أنت عارف يا شِقيق أفراح المتحف المصري مش بتطوِّل بيقفل 11 بالليل.

- يابن اللذينَ، أنت جوز عمتك ده مليونير ولا إيه ؟عاملين الفرح في المتحف المصري ده غالي فشخ.

- ياعم مش زي ما أنت فاهم، هما أصلا كانوا حاجزين في متحفَ محمود خليل، بس العروسة أهلها مرتاحين عملوا «آب جريد» للمتحف المصري، والكوشة في قاعة توت عنخ أمون.

- يا ولاد المرتاحة.

- أه أومال ايه يا عم؟ فاكرهم فقرانين زيك بيعملوا أفراحهم في فنادق؟

- طيب مستنيك يا غلباوي ماتتأخرش.

وضع حسين هاتفه مرة أخرى على المنضدة وابتسم رغمًا عنه ابتسامة عريضة متذكرًا مشاركته في مظاهرة حاشدة أمام

وزارة الآثار بعد قرار تأجير المتاحف لعمل حفلات الزفاف، كيف استقبلت وسائل الإعلام العالمية هذا الخبر قبل انقطاع قنوات بعينها عن الدش واختفائها تدريجياً.

أعاد حسين النظر مرة أخرى لشاشة التلفاز بعدما لفتت تلك الذكرى انتباهه لشيء ما ثم أصدر صوتًا عاليًا من حلقه وهو يقول ضاحكاً.

- أحا دي مش MBC2 دي قناة مضروبة، يا ولاد اللعيبة أنا ملاحظتش الغلطة في اللوجو إلا دلوقتي، وأنا كل السنين دي بسأل اشمعنى دي اللي باقية ده أنتوا قنوات الأطفال شوشتوا عليها، أتاريها مضروبة هههههههه

*****

«سفر اللعنة»

سقطت دموع الحق واختلطت بالرمال.. لم يبق منها سوى ذكرى الكلمات.

وكتبنا اللعنة على كل شجاع، تعيش وحدك وتموت وتبعث وحدك، أحَتَّى في البعث وحدة؟!

حين خرج أبو ذر الغفاري الصحابي الجليل على معاوية ونفاه إلى المدينة، عاد مرة أخرى للمنفي في الصحراء، وفي وداعه عند النفي الأخير، خرج له الإمام علي بن أبي طالب وولداه، فقال له الحسن: يا عماه لو لا أنه لا ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام، وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راض.

ثم تكلم الحسين فقال: يا عماه إن الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك فما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم فاسأل الله الصبر والنصر واستعذ به من الجشع والجزع فإن الصبر من الدين والكرم وإن الجشع لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا، لا آنس الله من أوحشك ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لآمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا

بالدنيا والجزع من الموت مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه والملك لمن غلب فوهبوا لهم دينهم ومنحهم القوم دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ألا إن ذلك هو الخسران المبين.. فبكى أبو ذر.

سقطت دموع الحق واختلطت بالرمال، لم يبق منها سوى ذكرى الكلمات، وكأن الحق قد بلغ من الضعف مبلغًا لا يعني حتى حبات الرمال.

*****

«11 أغسطس»

وتحسب كم بقيَّ على شراء القطعة القماشية المباركة من خياط النبي لشفاء زوجها.

تصفح فؤاد مكاوي الجريدة الرسمية، جريت عيناه لتبحث عن خبر سرقة مكتب البريد الذي يديره للمرة التاسعة منذ بداية هذا الشهر، وقبل أن يجده كان جهاز التكييف يعلن تمرده على موجة الحر الشديدة ويصدر صوتًا كخوار ثور ذبيح قبل أن يتوقف تمامًا عن العمل.

عثرت عينا فؤاد مكاوي على خبر السرقة في نهاية الصفحة الثالثة بدون صورة هذه المرة، ابتسم في ارتياح بعدما احتلت صورته وخبر سرقة المكتب الصفحة الأولى لأسبوع بأكمله بعد سرقته للمرة الثانية، لكن الضحكة ما لبثت أن رحلت بعدما تسللت قطرات العرق من جبهته لعينيه ليشعر بالاحتراق وانطفاء جهاز التكييف للمرة الأولى، أطلق سبابا عاليا وامتدت يده تلقائيًا للريموت كونترول محاولًا إحياء الجهاز الصامت، لكن الجهاز لم يكن بقرة صفراء فاقع لونها، ولا كان الريموت عصا موسى، فارتفع صوت فؤاد مكاوي ينادي في غضب.

- يازفت الطين، تعالى شوف التكييف عطلان ليه.

أسرع فراش المكتب الجديد اسماعيل إلى المكتب ملبيًا نداء مديره:

- خير يا فؤاد بك.

- التكييف مش شغال.. شوف لنا حل.

وقبل أن يحاول إسماعيل معاونة مديره كانت العصابة الرباعية تقتحم المكتب في موعدها المعتاد.

تناسى فؤاد بك متاعبه بسبب الحر وصرخ بصوت عال وهو يضحك :

- المرة دي نأبكم على شونة فضينا المكتب، مفيهوش غير ١٣٥ جنيه.

امتدت يد بهاء- رغما عنه- لتلتقط ريموت التكييف، بينما بقى وليد في الصالة الخارجية لتأمين المكتب ومعه خالد، واستمرت رندة في البحث في الخزانة دون أن تلقي بالًا لحديث مدير المكتب فؤاد بك، التفت فؤاد لمحاولة بهاء فقال في ضجر:

- حتى التكييف اتحرق يا اخويا على وشكم.

- قصر التجمع مكيف برضه يا باشا؟

انقلب وجه فؤاد بك غاضبًا واقترب من بهاء محاولًا الإمساك به لكنه تراجع خطوة ليسقط الرجل أمامه وهو يقول:

- أنت تعرفني منين؟ قول لي أنت مين؟

وقبل أن تصله الإجابة كانت العصابة قد قفزت في السيارة التي يقودها حسين ورحلت عن الشارع الذي أصابه الجنون

بفضل سارينة سيارات البوليس التي اقتربت من المكان.

وفي الظهيرة وقبل أن يغلق المكتب أبوابه، ووسط تأكيدات فؤاد بك على الفراش بضرورة إحضار الصيانة عقب إغلاق المكتب لإصلاح التكييف العاطل، كان بهاء يقتحم مكتبه مرة أخرى حاملًا مروحة «ستاند» في يد بينما مسدسه في اليد الأخرى ملقيًا التحية في سعادة:

- فؤاد بك ماهانش عليّ أسيبك في الحر، جبت لك مروحة تمشي حالك.

بينما ارتفع صوت رندة آمراً:

- فؤاد بك الخزانة بقى فيها كام دلوقتي؟

عجز العجوز عن الرد وارتفعت يده مسلمة المفتاح للشابة التي ارتدت قناعًا كارتونيًا والتي أسرعت لتلقط رزم الأموال القليلة في سرعة قبل أن تنسحب بصحبة زملائها تاركة صوت المروحة الجديدة التي أوصلها بهاء بقابس الكهرباء تدور وحدها وسط صمت الجميع.

*****

تغادر أنيسة ممرضة أحلام قصر فؤاد مكاوي في الصحراء، تعرف جيدًا الممرضة الثلاثينية أنها ستعاني من أجل الوصول لبيتها في حي عين شمس، وأن تلك القطعة المقفرة لا توجد

فيها أي وسيلة مواصلات، لكن الأجر العالي الذي عرضه عليها البك لا يمكن تفويته، تركت بهاء ابنها ذا السنوات الثلاث بصحبة خالته وفاء في نفس الشقة التي تزوجت فيها، تصل بعد ما يزيد على الساعتين في إجازتها الشهرية التي لا تزيد عن ٢٤ ساعة، تصعد السلم الحجري الضيق المتهالك في بناية قديمة في عين شمس الغربية، تطرق باب الشقة المكونة من غرفتين وصالة، تزوجت في احداهما قبل أن يرحل زوجها للعراق وتفقد أثره بعد غزو الكويت، وتزوجت أختها الصغرى وفاء في الحجرة الثانية من إبراهيم الذي يرقد منذ عامين مصابا بالتهاب الكبد الوبائي، تفتح لها وفاء الباب، لم تتمكن من الإنجاب فاعتبرت بهاء ابن أختها ولدها الذي لم تنجبه، تجتاز أنيسة الباب محاولة احتضان طفلها الذي يجفل منها ويختبئ في حضن خالته التي ترسم على وجهها ابتسامة مصطنعة مرحبة بأختها الكبرى، وهي تقول:

- حمدالله ع السلامة يا أنيسة.

- الله يسلمك يا وفاء.. أخباركم إيه؟

- أهو إبراهيم زي ما سبتيه من شهر، وبهاء بقى رغاي قوي ما بيبطلش كلام.

تلقي أنيسة بنفسها على الكنبة الأسيوطي وتمد يدها لأختها

طالبة حمل طفلها، فتضعه وفاء في حضنها فتعلو وجهه تقطيبة استعدادًا للبكاء، تضمه بقوة لصدرها وهي تربت عليه فيلعو صوت بكائه، ويمد يده لخالته طالبًا منها أن تحمله، تشعر وفاء بالخجل فتنسحب لغرفتها تاركة أختها مع ولدها، تتخطى وفاء عتبة الغرفة المتهالكة في وهن شديد بعد يوم من العمل الشاق في خدمة زوجها المريض والطفل الصغير، تدفع ذلك الباب الخشبي المتهالك لحجرتها العتيقة لترتمي بجسدها على تلك الأريكة الخشبية الوحيدة المتوحدة في فراغ الغرفة الضيق، بعيدًا عن الفراش الخشبي الذي ارتمى عليه زوجها في صمت، تزدرد لقيماتها القليلة التي كانت أعدتها للعشاء على عجل وتمد يدها أسفل الكنبة تتحسس شيئا ما، تصطدم يدها بذلك المشعل البدائي المطفأ وتلك الحقيبة الخيشية البالية، فتسرع بسحبها وتبدأ عد النقود في صمت وكأنها في صلاة، ولأنها تجيد العد حتى رقم عشرة فقط، تقسم النقود عشرات ثم تعيد تقسيمها لعشر مجموعات، وفي النهاية تعيد النقود لكيسها الصغير، وتستلقي على الأريكة في هدوء لتحملق في سقف الغرفة المتساقط، وتحسب كم بقيَّ على المبلغ المرجو، لشراء تلك القطعة القماشية المباركة من خياط النبي من أجل شفاء زوجها والذي يحل موعد حضوره

السنوي بعد أسبوع واحد، وتنام على ابتسامة في انتظار البركة.

بينما تحمل أنيسة طفلها- رغمًا عنه- إلى غرفتها وتنام بجواره على الفراش مغنية بصوت رخيم مستعينة ببكائه من أجل إجباره على النوم، وتبدأ في قص قصة فؤاد باشا وأخته والقصر الجديد القديم على طفلها حتى تذهب بجواره في النوم.

*****

تستيقظ أنيسة بعد تلك الليلة بست سنوات في نفس الغرفة، يبتسم لها بهاء الذي يلعب بسيارة متهالكة في الغرفة ذاتها بعدما أتم سنواته التسع، تقول له في حبور:

- صباح الخير يا بهاء.

- صباح النور يا ماما مش ح تبطلي بقى تحكي لي حكاية فؤاد بك دي؟ أنا زهقت منها، بقى لك سنين بتحكي عليها.

تغادر أنيسة فراشها وتحتضن ولدها وهي تقول:

- خلاص يا حبيبي الحدوتة خلصت، الأخت ماتت وأنا سلمت شغلي امبارح بعد العزا ورجعت أقعد معاك على طول.

يفلت بهاء من حضن والدته وينظر لها وهو يقول:

- يعني بجد يا ماما مش ح تسيبيني تاني؟

- لا يا حبيبي.

يجري بهاء ليفتح الباب مناديًا خالته وفاء التي رحل زوجها منذ ٣ أعوام:

- يا ماما وفاء خلاص ماما أنيسة مش ح تسيبنا تاني.

تبتسم وفاء رغمًا عنها للصغير وهي تقول في عتاب حاولت أن يبدو ودودًا:

- آه أنت فرحان بماما أنيسة وح تنسى ماما وفاء؟!

يحتضنها الصغير في حب شديد ويجلس على الأريكة بجوارها، فتلقي برأسها على رجله الصغيرة فيبدأ في رواية حدوتة فؤاد بك لخالته معتقدًا أنها ترغب في النوم:

- كان يا ما كان باشا مش باشا خد حتة أرض في الصحرا واشتري نَسَب وحَسَب، وحبس أخته المريضة في أوضة وجاب لها ممرضة كان بيديها ألفين جنيه في الشهر.

*****

«صاحب الحقيقة»

مصر الجديدة في محطة السادات.

انهمك العجوز في تلميع بوابات محطة السادات المعدنية، سالت دموعه السوداء لتبلل الفوطة الصفراء التي يحملها من أجل ذلك الغرض، ابتلت قليلًا فبدأ في استخدامها في التلميع.

يتأمل لوحات الفسيفساء المتهالكة أثناء العمل، يحزنه ذلك الانهيار فيضغط على فوطته أكثر، تتحرك القطع الصغيرة في الحائط أمام عينيه، يتوقف عن العمل وينظر لها في دهشة.

تتشكل القطع راسمة خريطة ما لا يتمكن من قراءتها، يتوقف عن العمل ويقترب من الحائط فتزيد صعوبة الرؤية فيعود بظهره للخلف محاولًا فهم الخريطة، يعجز عن استيعابها فيشيح بيده، فتعاود القطع الصغيرة التشكل مرة أخرى كما سرب من النمل يتحرك في دأب، ترتسم على الحائط كلمة «مصر الجديدة»، يقرأ العجوز الكلمة بوضوح، يفرك عينيه متأكدًا مما يراه قبل أن يجري نحو الحائط متشبثًا بالحروف الضخمة وقبل أن يلقي بنفسه على الأرض ساندًا ظهره على الحائط ودموعه تتساقط وهو يصرخ في خوف:

- سبحان الله! سبحان الله! سبحان الله!

*****

«14 أغسطس»

عندك مجلة ميكي ياحاج

مع تباشير ضوء الفجر الأول، بينما بدأت الرطوبة في مد طغيانها على وجوه المارة القلائل، وقبل أن يستيقظ أهالي القاهرة، بدأ بائع الجرائد العجوز في فرش فرشة الجرائد في ميدان لبنان في المهندسين، مرت سيارة التوزيع حاملة الجريدة اليومية الوحيدة التي يصدرها جهاز المخابرات تحت اسم الجريدة الرسمية، ألقت إليه برزمة واحدة تحوي خمسين عددًا، وأعاد لهم نسخة اليوم السابق في نفس الرزمة لكنها تنقص واحدة، عبرت السيارة الميدان في طريقها لمدينة أكتوبر، بينما وقف الرجل حزينا يحدث نفسه قائلاً:

- ربنا يتوب عليَّ من الشغلانة دي، خلاص هو جورنال واحد وماحدش بيشتريه، لولا المرتب اللي بناخده من المخابرات كان زماننا ح نموت من الجوع!

أكمل العجوز رص الجرائد على الأقفاص، وأخرج من صندوق آخر مجموعة من مجلات الأطفال والمجلات الفنية المصرية والعربية وبضع روايات جيب، ثم أشار لبائع الفول الذي بدأ يستعد لممارسة عمله كي يأتيه بالإفطار، وأمسك بالجريدة ليتصفحها قتلًا للوقت، خرجت الجريدة الرسمية بمانشيت: «التجديد الخامس لمجلس الشعب»، ابتسم الرجل وتذكر

عضو الدائرة التي يسكن فيها والذي نجح بعشرة آلاف صوت لعزوف الناخبين عن المشاركة في الانتخابات، وكيف اختفي هذا العضو من الدائرة حتى القرار التاريخي الذي أصدرته الحكومة، بمد العمل بهذا المجلس دون الحاجة لأي انتخابات جديدة، توفيرًا للنفقات، وحرصًا على تكوين مجلس هو الأصلح لمصر، قطعت خواطره سيارة حسين التي توقفت بجوار فرشته، وأخرج رأسه ليسأله:

- عندك مجلة ميكي يا حاج؟

أسرع الرجل لتلبية طلب زبونِه الذي دفع ثمن المجلة، بينما كان بائع الفول يأتيه بالساندوتشات الملفوفة في نسخة الجريدة لليوم السابق، بينما انطلق قائد السيارة بسرعة كبيرة، وبهاء يقول له:

- بس يا سيدي، فأنا أعرف فؤاد بك ده من وأنا في اللفة، تخيل؟!

- طيب هو ده ليه علاقة بإننا اختارنا المكتب ده بالذات؟

- لا خالص، دي صدفة عجيبة، إنت عارف إني ماعرفتش اسمه غير من الجرايد تاني يوم، وحسيتها علامة من ربنا، رندة هي اللي اختارت المكتب.

هدأ حسين من سرعة سيارته، والتفت لصديقه الجالس

ممسكًا بزجاجة البيرة الخضراء، وقال:

- بهاء.. عندك فكرة رندة ووليد وصلوا لحد فين؟

تجرع بهاء المتبقي من الزجاجة قبل أن يلقيها بكل قوته على الرصيف المقابل ليسمع صوت تحطمها، وهو يقول:

- بذمتك إنت مش فاهم يا حسين؟

- فاهم إيه؟

- إن رندة يا دوب بتغيظك بوليد، وإنه م يدخلش ذمتها بشلن.

ضغط حسين مكابح سيارته بعنف فاصطدمت رأس بهاء بالزجاج الأمامي، ليطلق سبابًا، فيرد حسين في غضب:

- إنت عارف إيه مش قايلهولي يا بهاء؟

عدل بهاء من وضعه في مقعد السيارة الأمامي، ومد يده ليربت على كتف صديقه، وهو يقول:

- خلينا نخلص الخطة.. ووعد ح اقول لك كل حاجة.

- أنا مش ح اتحرك من هنا غير لما أفهم كل حاجة.

- إعقل يا حسين ماتبوظش الدنيا.

أنزل حسين يد صديقه من على كتفه وهو يقول في حسم:

- اتكلم يا بهاء.

أشاح بهاء بوجهه وهو يقول محدثًا نفسه بصوت عال

ليسمعه حسين.

- ماهو لا زم يبقى معانا فلوس علشان كل حاجة تتحل، أصبر يا حسين أبوس إيدك.

مد حسين يده ليجبر بهاء على النظر له، وهو يقول:

- اتكلم يا بهاء.

- كلنا متفقين يا حسين نجمّع مبلغ معين ونسيب مصر ونسافر، رندة حطت الخطة وخالد بيجرب مع معارفه في مشرحة زينهم، وأنا كانت مهمتي إني أقنعك بالمشاركة.

- طيب ووليد؟ وأنا؟

- وليد مايعرفش أي حاجة وح يصحي في يوم مش ح يلاقينا.

انقض حسين على صديقه وأمسك بقميصه بعنف، وهو يقول:

- وأنا؟

- بس بس نزل إيدك كنت ح اقولك طبعا، ده لو رندة ماعرضتش عليك تسافر معاها.

جذب حسين بهاء بعنف أكثر، وقال بغضب:

- إنت كداب يا بهاء كداب، أنتم كنتوا ناويين تسيبوني مش عارف.

- بقول لك إيه.. إنت سألت عن وليد وأنا فهّمتك، وأنت

حر مش عايز تكمل الخطة بلاش، ح نلاقي حد يكملها، بس اللي أنا متأكد منه إنك مش ح تقول لوليد لأنك من جواك غيران منه وفرحان فيه.

سقطت يدا حسين بجواره ثم التقط مقود سيارته وظغط دواسة الوقود بكل قوته وانطلق نحو بيت رندة.

*****

«20 أغسطس»

صاحب العصافير الورق فلت برق.. بس البقية صابها الغرق.

ضرب وليد بيده سطح المنضدة التي التف حولها بهاء وخالد ورندة، التي جلست وقد بدا عليها الغضب قبل أن يقول:

- حد مننا يسوق ونكمل مش حنقف علشان حسين بك مش راضي يكمل.

- مش حنكمل من غيره.

ردت رندة في حزم وهي تغادر مقعدها في اتجاه المطبخ، حاول وليد أن يمسك يدها لكنها أفلتتها منه، وبهاء يقول:

- لا ده كمان ناوي يتبرع بيها لمشروع قناة السويس الجديدة.

نهض خالد من مقعده متجهًا للباب وهو يقول:

- أحا واضح إن حسين لسع تماماً، أنا رايح التحرير، وبعدين ح اعدي على المشرحة أشوف الأخبار، العشر مرات اللي احنا نفذناها يا دوب خلت كل واحد فينا معاه مليون جنيه، يعني حوالي كل واحد معاه ٢٠ ألف دولار، يعني يا دوب نسيب البلد ونعيش شحاتين برة.

ثم أغلق الباب خلفه وترك الجميع في حالة صمت، وأسرع ليقفز السلم عازمًا على العودة لمحطة السادات مرة أخرى، ألقى بنفسه في أول ميكروباص متحرك نحو وسط المدينة، وأخرج من جيب بنطاله ورقة وبدأ في عمل عصفور جديد.

مـا إن ينتهـي منـه حتـى يطلقـه مـع الريـح مـن الشـباك الـذي جلـس بجـواره.

توقـف الميكروبـاص في ميـدان عبـد المنعـم ريـاض، غـادره بعـض المعتمريـن وهـم يعيـدون تعديـل وضـع قنـاع الغـاز عـلى وجوههـم، بينـما انسـل هـو في اتجـاه بـاب المحطـة المخفـي في هـدوء.

قفـز بسرعـة فـوق كـوم القمامـة الـذي يسـد بـاب المحطـة، مسـتغلا موجـة الحـر الشـديدة التـي جعلـت الشـارع مقفـرًا مـن المـارة، جفـف عرقـه بورقـة أخـرى مـن جيبـه ومـر مـن بـاب المحطـة الحديـدي بعـد أن أزاحـه برفـق.

اسـتعان بمصباحـه اليـدوي لينـير الطريـق داخـل المحطـة المظلمة، تحـرك بهـدوء يتحسـس طريقـه حتـى وصـل إلى السـلم المفـضي لشريـط المـترو، لفـت انتباهـه ضـوء خافـت يأتي مـن رصيـف الجهة الأخـرى مـن المحطـة، ارتجـف جسـده مـن الخـوف، وانتحـى جانبًـا يلتقـط أنفاسـه قبـل أن يتحـرك بحـرص باحثًـا عـن مصـدر الضـوء، جذبـت أنظـار خالـد لوحـة الفسيفسـاء التـي شـكلت كلمـة مـصر الجديـدة بينـما سـقط أسـفلها رجـل عجـوز سـالت مـن عينيـه دمـوع سـوداء اللـون مـا إن تلمـس الأرض حتـى تعطـي ضـوءًا عجيبـاً، أدرك خالـد أن الرجـل مغـشي عليـه فقفـز عابـرًا شريـط

المترو ليقترب منه في هدوء متحاشيًا لمس الدموع، انتفض العجوز عندما لمسه خالد مستطلعا، وقال دون أن ينظر له:

- صاحب العصافير الورق فلت برق بس البقية صابها الغرق.

لم يتكمن خالد من فهم الكلمات التي خرجت من فم الرجل العجوز بوهن شديد، فقال بعد أن جلس بجواره على ركبتيه:

- بتقول ايه يا حاج؟ إنت كويس طيب؟

ردد الرجل ناظرًا لسقف المحطة:

- صاحب العصافير الورق فلت برق بس البقية صابها الغرق.

ظهرت الدهشة على وجه خالد وتحسس عصفوره الورقي الأخير في جيبه لا إراديًا قبل أن يمسك بكتفي الرجل متسائلاً:

- إنت تعرفني؟ أنت مين؟ وبتعمل ايه هنا بالظبط؟

نهض الرجل العجوز بقفزة واحدة- وكأنه شاب في العشرينيات من عمره- ثم نظر إلى خالد قائلا:

- ح توديني مصر الجديدة، ح اخرّجك من البلد.

*****

زمن قديم..

بعد شهور من التعامل والمعرفة عبر فيسبوك، قررت مجموعة «علمني الكتابة» اللقاء في أحد مقاهي الحسين، كان أعضاء تلك المجموعة يتابعون ما يكتبونه بصفة شبه يومية، ويعلقون عليه، حتى صارت بينهم رابطة سمحت باللقاء الفعلي الأول، وسرعان ما انقسمت هذه المجموعة الكبيرة- المكونة من ما يزيد على ٢٠ فردًا حضروا اللقاء الأول- إلى مجموعات صغيرة مكونة من أربعة أو خمسة أفراد، توقف حسين بعدها عن متابعة الجروب مكتفيًا بلقاء بهاء وخالد ووليد ورندة، التي تعلق قلبه بها، وسرعان ما تمت الخطبة في حضور الجميع بعد عامين من اللقاء الأول، لم يلق حسين بالًا بمحاولات وليد التقرب من رندة التي شغف بها حبًا منذ قرأ القصة الأولى على مجموعة «علمني الكتابة»، بينما ابتلع وليد غيرته وغضبه واكتفي بالغياب عن الخطبة متعللًا بظروف مرض والدته، وبعد أقل من ستة شهور كان الزفاف الذي حضرته المجموعة بالكامل، رغم انقطاع صلة المجموعة الكبيرة ببعضها البعض، إلا أن الكثيرين اعتبروا زواج عضوين في مجموعتهما إنجازًا على المستوى الشخصي.

رحل الجميع في نهاية الفرح بينما بقى الثلاثي وليد وبهاء

وخالد مع العروسين، إشارة لأنهم سيبقون سويًا كأصدقاء بقية العمر، وفي صباح اليوم التالى كانت هدية الثلاثي وصلت للعروسين عبارة عن رحلة لمدة أسبوع في شرم الشيخ مدفوعة التكاليف، دفعها وليد تقريبًا بالكامل لعدم اعتماد بهاء وخالد على مصدر دخل ثابت، لكنهما نجحا في إقناعه.

وبعد ٤ أعوام من الزواج حدث الطلاق نتيجة اختلاف الطباع الشديد بين حسين ورندة، والذي لم يكتشفاه سوى بالتعامل اليومي، تدخل الأصدقاء عدة مرات من أجل الصلح، لكن الخلافات- التي يزيد عمرها على عامين وكتماها عن الجميع- كانت قد استفحلت وقضت على ما بينهما.

وفي اللقاء الأخير للصلح جلست رندة في بيت الزوجية داخل غرفة نومها، بينما جلس الثلاثي مع حسين يحاولون التوسط بينهما بعد أن ألقى يمين الطلاق.

تبادل الأصدقاء العبارات المعتادة في تلك المواقف، بينما انشغل حسين تمامًا بما يدور في رأسه، تذكر ليلة زفافهما لحظة الخلاف الأول الذي لم يدرك حجمه حينذاك، بعدما تجاهلت رندة زفافاها وأبدت تبرمها من أهله الذين يقيمون في القرية، والذين أصر على حضورهم رغم رفضها، تذكر بعدها تلك الخلافات التي لم تنقطع وزادت في العامين الأخيرين حول

رغبتها في شاليه في الساحل الشمالي، في زيارة كوافير معين مثل صديقاتها، وولولتها الدائمة على أنها لم تجد في بيت زوجها ما كانت تحصل عليه بسهولة في بيت والدها، حتى عندما واجهها يوما بأنها تقتل حبهما، وطالبته بالسفر للخارج من أجل مستوى مادي أفضل، وأخبرها عن قناعته بأن الغربة غول إن لم يبتلع صاحبه سوف يوجعه، فسخرت منه، يومها أدرك أن النهاية قادمة لا محالة، قطع حبل أفكاره خروج رندة من الغرفة حاملة أسيل طفلتها ذات العامين في يد، وحقيبتها في يد أخرى قائلة:

- خِلصنا يا جماعة لو سمحتم، وليد وصلني بيت بابا.

حدث الطلاق ليقسم المجموعة الصغيرة إلى مجموعتين، رندة ووليد العاشق الذي عاد له الأمل، وبهاء وحسين بحكم الشرب والمخدرات، بينما بقى خالد حائرًا بين المجموعتين.

*****

«سفر البراءة»

رقصت سالومي لتقتل يحيى
وبكت المجدلية وعطرت المسيح
أموات بيننا وكأنها تحيا
تمتص أحلامنا وتقتلتها لتستريح

*****

وأنا تماما كيحيى
أصرخ في البرية وما من مستجيب
أعيش زمان فيه أحيا وكأني غريب
أحسد المسيح حتى على الصليب
ميت أنا وقلبي حي جريح

*****

والفارق بين المجدلية وسالومي
هو الفارق بين الحب و«المصلحة»
بين صرخة الميلاد وضجيج المذبحة
بين وجه ملائكي ووجه قبيح يرتدي الأوشحة
وخلف ألف قناع.. قلوبنا يستبيح

*****

ملعونة أنت تماما مثلها..مجرد راقصة في بلاط السلطان

يا صاحبة الوجه البريء يا صانعة الأكفان

تغزلينها بكذباتك بادعاءك وتخلطينها بالبهتان

العاهرات أشد شرفًا منك

العاهرات لا يضاجعن الشيطان

*****

«25 أغسطس»

طباخ السم

تأمل حسين نفسه في المرآة، لم يغادر منزله منذ أسبوعين إلا اليوم، عاد لتوه من أحد محال بيع المواد الكيماوية، طالت لحيته وتشعث شعره حتى بدًا عمره وكأنه أكبر بسنوات عشر، تأمل الشعيرات البيضاء التي انتشرت في لحيته قبل أن يلتقط كتاب السموم الذي اشتراه من مكتبة كلية العلوم، راجع المكونات جيدًا، واتجه لمنضدة غرفة الجلوس التي وضع عليها المعدات المعملية التي اشتراها وجهزّها، وبدأ بتسخن قطعة حديدية فولاذية حتى احمرت، ثم خلط مادة كربونات الصوديوم مع الفحم مع أكسيد الحديد، ارتجفت يده قليلاً، لكن فكرة مرت في رأسه جعلته يبتسم ويواصل عمله في تركيز شديد، أفرغ الخليط على القطعة الفولاذية المحمرة فبدأ يذوب ويعطي بعض شرارات نارية، ثم خلطه بفرشاة لحين توقف الشرارات النارية ثم برد الفولاذ وأفرغ الخليط في الماء الساخن، ثم غلى السائل المتبقي في حمام مائي حتى تبخر معظم الماء، ثم نقله إلى سطح القطعة الفولاذية وسخنه حتى تبخر الماء كليًا.

تنفس الصعداء بعدما بقيت أمام عينيه المادة البيضاء المعروفة تجاريًا باسم سم السيانيد، وقبل أن يتحول لونه

ويفسد وضعه بعدما أحكم ارتداء قفازًا طبيًا حول يده في كيس بلاستيكي مفرغ من الهواء، رمى بجسده الضخم على الأريكة ليلتقط أنفاسه، التقط الريموت كونترول وبدأ في البحث بين القنوات حتى توقف عن أغنية سعد المجرد «إنت معلم»، ابتسم ودبت الروح في جسده فانتفض ليحضر حقيبة من دولاب ملابسه، فتح حسين الحقيبة فصافحت عيناه مليون جنيه مصري، أخرج الأموال وبدأ في فرشها على منضدة السفرة، ومسحها بمادة السيانيد بحرص وهدوء شديد للغاية، تسابقت قطرات العرق على جبهة حسين فاضطر للتوقف خوفًا من أن يختلط عرقه بالمادة فيمنعها من الالتصاق بالأوراق النقدية، جفف العرق، وفكر لحظة في تشغيل المكيف لكنه عدل عن الفكرة خوفًا من تطاير السيانيد، استكمل مهمته مرة أخرى حتى انتهى، نظر في ساعة الحائط المثبتة أمامه فوجدها الثامنة مساء، اندهش كثيرًا لأنه قضى ثمانية ساعات في مهمته.

كانت محطة الأغاني التي تركها تعمل تذيع أغنية قديمة لمحمد فؤاد يقول فيها «ولا يهمِّك، لقيت ترياقي من سِمِّك» ابتسم حسين للمفارقة وبدأ في تجميع الأوراق النقدية وإعادتها لرزم مرة أخرى قبل أن يعيدها للحقيبة، خلع ملابسه بسرعة وقفز تحت الدش مدندنا أغنية محمد فؤاد التي يحفظها

عن ظهر قلب، لكن معدته الفارغة ثارت عليه ليسرع في تجفيف جسده والاتصال بأحد محال الأطعمة الجاهزة ليطلب إفطارًا تأخر كثيراً، ويجلس أمام التلفاز انتظارًا لوصول عامل الديليفري، قلب حسين قنوات التلفاز وتوقف عند نشرة أخبار القناة الأولى التي كانت تذيع نبأ عودة عصابة الأقنعة لسرقة مكتب البريد مرة أخرى بعد توقف دام أسبوعين.

ضرب بيده على المنضدة مطلقًا سبابًا وصوتًا من أنفه، ثم التقط هاتفه المحمول واتصل برندة.

*****

ارتفع رنين هاتف رندة المحمول بينما كانت تجلس بصحبة وليد وبهاء في شقتها أمام التلفاز الذي ينقل مشاهد مسجلة من محاولة السرقة، ألقت نظرة على اسم المتصل وقالت:

- إلحقوا.. حسين بيتصل.

غابت ابتسامة بهاء بينما ابتسم وليد وقال:

- ح تردي عليه؟

هزت رندة رأسها وقالت:

- لأ خليه يرن.

حاول بهاء تغيير الموضوع فأشار إلى شاشة التلفاز قائلا:

- مش خطر إنهم صورونا؟ مش ممكن يعرفوا يوصلوا لنا؟

ارتفعت ضحكة رندة الساخرة لتملأ المكان وتغطي على صوت التلفاز، ثم قالت:

- أنت ناسي إن الشرطة قبضت على خمسة من أسبوع واتهموهم إنهم منفذي العملية؟ لا واعترفوا!

قاطعها وليد قائلا:

- بس استنى يا بهاء أنا عايز أفهم إنت بينك وبين الراجل مدير المكتب إيه؟ الراجل النهاردة ماكنش مهتم بالسرقة قد الكلام معاك.

ظهر الارتباك على وجه بهاء وأشاح بوجهه بعيدًا دون أن يرد، توترت ملامح وجه رندة وغابت ضحكتها، بينما نهض وليد من مقعده ووقف أمام بهاء وقال في حزم:

- اتكلم يا بهاء.

نهض بهاء من مقعده ودفع وليد بعيدًا وهو يقول:

- إنت اتجننت يا وليد ولا إيه؟ تكونش ناوي تضربني؟

- اتكلم يا بهاء.

صرخت رندة، بينما قال بهاء:

- الراجل مايعرفنيش بس أنا أعرفه.. ارتحتم؟

قامت رندة لتمسك بهاء من معصمه وتعيده لمقعده مرة أخرى، وهي تقول له بصوت حرصت على أن يكون ودوداً:

- كمل الحكاية كلها.

نظر بهاء لعينيها طويلًا ثم بدأ يحكي قصة فؤاد بك وأمه الممرضة التي خدمت أخته.

*****

«30 أغسطس»

نحن فقط نصدق ما نحب أن نصدقه.

عاد أشرف إلى قصر والده فؤاد مكاوي متهللاً، وبمجرد دخوله إلى بهو القصر نادي بصوت عال:

- يا دادي اللادا اتباعت، تخيل النهاردة في سوق السيارات ماخدتش أكتر من ساعة؟

اعتدل والده العائد من صلاة الجمعة في مقعده وقال:

- مين اللي اشتراها؟

- شاب اسمه بهاء.. أنا استغربت قوي انه بيشتريها وسألته غصب عني عايزها ليه؟ قال لي ذكريات.

امتعض وجه الأب وقال:

- إدَّى لك صورة بطاقته؟

- آه.. أهي.

مد أشرف يده بصورة البطاقة التي أصدر لها المبايعة بالتوكيل الممنوح له من والده ببيع السيارة، تأملها فؤاد جيدًا وهز رأسه في غضب من لا يعرف ما يبحث عنه، أخرج أشرف من جيبه خمسة عشر ألف جنيه وقال لوالده:

- معلهش بقى هي طبعا ماجابتش فلوس بس الحمدلله إننا خلصنا منها.

أمسك فؤاد بالمال وأخرج ورقة وقلم من حقيبته الجلدية

التـي بجـواره وكتـب عنوانًـا أعطـاه لولـده وقـال:

- ح توصل العنوان ده، بيت الست أنيسة حتديها الفلوس دي.

رد أشرف مستفهما:

- مين أنيسة دي يا دادي؟ الجو القديم؟

نظر فؤاد مكاوي لولده في غضب وأجاب:

- بطـل هيافـة واسـمع الـكلام وترجـع تحـكي لي قابلـت مـين، لأني ماعرفـش هـي عايشـة ولا ميتـة، بـس لـو ميتة شـوف ابنهـا أنـا اتهيألي كان عندهـا ولـد، وكان عندهـا أخـت كـمان مـش فاكـر اسـمها.

- حـاضر يـا دادي بـس خلينـي اتغـدى واروح لأنهـم في عـين شـمس، يعنـي ح اتأخـر.

*****

عـاد خالـد للمحطـة ليـلًا هـذه المـرة، كان عـلى موعـد مـع الرجل العجـوز، حمـل معـه هـذه المـرة طعامًـا مختلفًـا عـن الـذي يعـود بـه إليـه كل يـوم، كان قـد اتفـق مـع الرجـل عـلى أن لا يتحـركا قبـل أن يسـتعيد صحتـه، عـاد لـه في اليـوم الأول بالـدواء والغـذاء، واليـوم هـو اليـوم الموعـود.

اعتـذر عـن تنفيـذ عمليـة جديـدة صبـاح يـوم ٣١ لأنـه سـيكون مشـغولًا، حـاول الجميـع معرفـة سـبب انشـغاله لكنـه طمأنهـم بأنـه ينهـي إجـراءات سـفرهم، بينـما بقـى وليـد بعيـدًا عـن ذلـك

السفر، ابتسم العجوز عندما لمح خالد، واعتدل جالسًا بعدما كان متمددًا على أحد المقاعد الحجرية في المحطة، جلس خالد أمامه وناوله الطعام، فقال الرجل مبتسماً:

- ليس هناك ما يسمى بالرسائل.. نحن فقط نصدق ما نحب أن نصدقه ويصوره لنا خيالنا.

- يعني إيه يا مولانا؟

ابتسم الرجل وكعادته كرر الجملة ففهم خالد أنه لن يجيبه، فحاول فك لفافات الطعام من أجل مساعدة الرجل الذي أشار له حتى يتوقف، ثم قال:

- يلا بينا.. ميعادي أتحرك النهاردة:

ودون أي مقاومة وجد خالد نفسه يتحرك ممسكًا بيدي العجوز في اتجاه نفق المترو في طريقهما إلى مصر الجديدة.

كان الرجل قد شرح لصديقه الجديد قصته، وأكد له أنه قادر على إخراجه من مترو الأنفاق والذهاب به لمصر الجديدة دون أن يفهم منه لماذا يريد الذهاب إلى هناك، فقط وعده الرجل أن يخرجه من مصر.. خشى خالد أن يخبر رفاقه، لا نه لم يعرف لماذا صدق الرجل، لهذا حمل كل ما جمع من مال ووضعه في حقيبة ظهره وبدأ في خوض رحلته مع العجوز.

*****

«33 أغسطس»

لو غاب سبتمبر فكلنا سبتمبر.

خرجت الجريدة الرسمية ما نشيت باللون الأحمر يقول «مؤامرة صهيونية تجبر مصر على البقاء داخل شهر أغسطس»، بينما غصت الفضائيات المصرية بالخبراء الاستراتيجيين خريجي معهد الخبراء الذي أنشأته الحكومة المصرية منذ عدة سنوات لحاملي الشهادة الإعدادية والتي تبلغ مدة الدراسة فيه عشر سنوات كاملة، تحدث بعضهم عن أبعاد المؤامرة التي تهدف إلى تقسيم مصر جغرافيًا بامتداد أغسطس رغم نهايته رسمياً، بينما أشاد البعض الأخر بحكمة الرئيس الذي أصدر أوامره للحكومة بدفع رواتب الموظفين رغم عدم نهاية الشهر، كانت درجة الحرارة قد وصلت أعلى معدلاتها في هذا اليوم حيث سجلت أجهزة القياس ٥٠ درجة مئوية، فاضطرت الحكومة إلى نصح الناس بالبقاء في المنازل.

تناثرت الشاعات على المقاهي وفي البيوت عن سبب استمرار شهر أغسطس ودرجة الحرارة التي لم تعهدها مصر من قبل، فقرر رئيس الوزراء تكليف نقيب التشكيليين، توجيه خطاب للأمة مساء هذا اليوم لشرح سبب المشكلة، وأمام شاشات التليفزيونات احتشد الشعب المصري لسماع كلمة الحكومة.

ظهر نقيب التشكيليين مبتسمًا كعادته يرتدي بزة سوداء

اللــون وقميصــا رماديــا بــدون رابطــة عنــق، واقفًــا أمــام البوابــة الرئيسـية لمجلـس الـوزراء وأمامـه عـشرات الميكروفونـات، ليبـدأ خطابــه:

- يــا مصريــين، وحشــتوني، لم نتحــدث ســويًا منــذ ثلاثــة أيــام كاملـة، وهـا أنـا أعـود لأخاطبكـم في الهـواء الطلـق، حيـث يشـيع المخربـون والأرهابيـون أن درجـة حـرارة بلادنـا الطيبـة قـد وصلـت لخمسـن درجـة مئويـة، وهـا أنـا أقـف أمامكـم دون قطـرة عـرق واحـدة، قطـرات عرقـي أخزنهـا للعمـل لا للحـر.

- نعــم اليــوم هــو ٣٣ أغســطس، انتظرنــا الأمــس لعلهــا غلطــة لكــن الشــهر اســتمر وأكمــل اليــوم، لكــن مــا ذا يضيرنــا لــو غــاب ســبتمبر، فلــو غــاب ســبتمبر فكلنــا ســبتمبر، أصــدرت أوامــري للحكومــة بــصرف الرواتــب وتجاهــل بدايــة الشــهر، وللجهــات المعنيـة بتقـصي الحقيقـة وإنهـاء أغسـطس، بينـما شـكل مجلـس الشــعب لجنتــين، لجنــة لتقــصي الحقائــق حــول اســتمرار الشــهر وأخــرى لتلقــي شــكاوي المواطنــين.

- شعبنا الحبيب لا تقلق، أنتم في أحضان أمينة.

أنهــى نقيــب التشــكيليين كلمتــه ليذيــع التلفــاز أغنيــة ســعاد حســني «الدنيــا ربيــع»، بينــما تحــول فريــق عمــل إذاعــة خطــاب الحكومــة لخليــة نحــل مــن أجــل لم الديكــور الداخــلي المشــابه

للمنطقة الأمامية لبوابة مجلس الوزراء.

بينما تناقلت المواقع الألكترونية خبر القبض على علاء عبد الفتاح المبرمج والناشط السياسي ذو الـ 55 عامًا، بتهمة قلب نظام أغسطس.

*****

تأمل حسين الإيصال الذي سلم به المليون جنيه إلى لجنة تبرعات قناة السويس الجديدة، ابتسم عندما تذكر إصرار رئيس هيئة القناة شخصيًا على مقابلته، وكيف قضى ساعة كاملة في شرح فوائد القناة المحتملة لمصر رغم حفرها منذ سنوات طويلة، أكد الرجل أن الأعداء يعيقون المشروع الذي سيقفز بمصر للقرن الثاني والعشرين، هز حسين رأسه موافقًا وغادر المبنى سعيداً، اتصل ببهاء بعد قطيعة طويلة، طالبا منه اللقاء مساء، أخبره صديقه أنه اشترى سيارة «لادا»، عجز عن كتم ضحكته والسخرية من بهاء وقال له:

- لما تيجي لازم أشوفها.

وفي المساء التقيا بشوق كبير، أنستهما الصداقة والعشرة سبب الغضب بينهما والخصام، شاهد حسين السيارة وقال لبهاء:

- أنت مجنون؟! شاري العربية المهكعة دي ليه؟!

- دي عربية فؤاد بك.

توقف حسين للحظة ثم ضحك بصوت عال، وقال:

- أنت مجنون؟! ولو كان اتعرف عليك؟

- يتعرف على مين؟ إنت عارف إنه بعت الفلوس بتاعتها لأمي بالليل؟

- إيه؟!

- آه بعت ابنه وخلاه يكلمها في موبايله، وأمي ماكنتش موافقة تاخدها.

- طيب عمل كده ليه؟ لاحسن يكون غلط مع أمك ياض؟

- اتلم يا حسين وتعالى نطلع نشرب حاجة بدل ما نموت مخنوقين في الجو ده.

*****

«35 أغسطس»

شريط المترو داير على طول.

خمسة أيام كاملة مرت على خالد بصحبة العجوز في غياهب متاهات أنفاق المترو، ينامان نهارًا ويتحركان ليلًا حين تتوقف عربات المترو عن المرور، مر اليوم الأول عاديًا حتى وصلا إلى بقعة ما، ارتجف العجوز وبدأت جدران النفق في التماهي مع ارتجافته، وجد خالد نفسه راكبًا أحد طيور الأورجامي التي يصنعها، طائر أخضر وخلفه العجوز، ارتفعا عاليًا في السماء، لم ينجح في تمييز الأرض بعد أن حجبتها السحب، صرخ بصوت عال، لكن الرجل ربت على كتفه مطمئناً، غابت السحب فظهرت القاهرة أسفلهما، مقسمة بين أحياء مهدمة فقيرة رمادية اللون يغطيها التراب، ومدن فاخرة محاطة بالأسوار جعلها اللون الأخضر زاهية مفرحة، وقبل أن يسأل العجوز كانا قد عادا مرة أخرى لمحطة مجهولة محيت يا فطتها، ليقضيا نهارهما نيامًا فيها، وفي الليلة الثانية وفي نهايتها بعد السير لساعات على شريط المترو وبالقرب من مدخل محطة سرايا القبة ارتجف العجوز مرة أخرى ليجد خالد نفسه داخل مشرحة زينهم بصحبة رفيقه، يتحركان دون أن يشعر بهما الحراس، شاهد الحرس يتجرعون كئوس الدم، وشاهد النفق السري المؤدي لمهبط المطار، الذي يقود المسافرين المختارين

للخروج من مصر، حاول الاقتراب من النفق والقفز فيه لكن الشيخ جذبه محذرًا، وعندما عادا لمكان بياتهما سأله في عصبية:

- منعتني ليه؟

- بيننا اتفاق لازم تنفذه مش أنا وعدتك أسفرك.

اعتذر خالد للعجوز لكن سؤالا آخر قفز في رأسه:

- احنا ازاي ماوصلناش مصر الجديدة مع إن بقالنا يومين ماشيين؟

ابتسم العجوز ابتسامة ذات مغزي وقال:

- لأن شريط المترو داير على طول.

- يعني إيه؟

- يعني تقدر تحدد أول الدايرة من آخرها؟

- لا.

- علشان كده لو ماعرفتش توصلني ح تفضل تلف معايا في المترو للنهاية.

صدم الرد خالد فابتلع ريقه، ثم قال:

- طيب وإنت واثق ليه كده من إني أعرف أخرَّجك؟

ربت الشيخ على كتف خالد، وقال في ثقة:

- ح تعرف، سيب نفسك بس وأنت تعرف.

وفي الليلة الثالثة كانا على موعد مع الطيران مرة أخرى، وجدا نفسيهما فوق سيناء التي غمرها البحر، بعد قرار اتخذته الحكومة منذ ٢٠ عامًا للقضاء على الإرهاب باغراق شبه الجزيرة للخلاص من سكانها، صرخ خالد عندما رأى المشهد، تساءل الشيخ:

- إنت ما تعرفش؟

- لا.. قالوا لنا وعلمونا في المدارس إن سينا تم تطهيرها بالكامل.

- بس ماحدش منكم سافر لها وشاف بعينه إزاي؟

- أنا شخصيا سافرتها مرتين ماكنتش كده.

أشار الشيخ بيده لجزيرة شرم الشيخ التي ضمت شرم الشيخ ونويبع ودهب، وجزيرة أخرى للطور ضمت سانت كاترين، وقال:

- كنتوا بتروحوا بري للجزر دي مش بتتحركوا غير جواها، وم تعرفوش حاجة براها، اللي متحوط بسور سلك عليه عساكر، وانت بتوصلوا يا دوب عن طريق نفق المشير اللي اقنعوكوا إنه اتمد في مشروع حضاري جديد.

ثم نظر إلى الأفق وقال

- العمل بالسياسة يشبه تماماً احتراف ممارسة الدعارة دون

حاجة مادية.

وفي الليلة الرابعة انتظر خالد رحلة جديدة لكن الشيخ نصحه بالنوم جيدًا لأنه يشعر أنهما قاربا على الوصول، حتى بدأ التحرك في الليلة الخامسة، وبمجرد الانتقال لخط مصر الجديدة وأمام محطة الكوربة، اختفت الجدران، ليجدا نفسيهما في محطة مترو مصر الجديدة الأثرية في عبدالعزيز فهمي، الأثر الباقي الوحيد لمترو مصر الجديدة الذي تم إلغاؤه منذ عقود، بهت خالد وأشار للعجوز إلى المترو الأخضر القديم الذي وقف في المحطة استعدادًا للانطلاق، وقال:

- إيه ده؟ إزاي؟

ابتسم الشيخ وقال له وهو يجذبه نحو المترو:

- إركب معايا علشان توصل.

تحرك المترو لتصدر عجلاته ذلك الصوت المميز لاحتكاك الحديد، يسد خالد أذنيه من الصرير العالي ليتحرك المترو وتختفي عرباته تباعًا، تظلم الدنيا من حوله، ويفقد الوعي.

*****

«41 أغسطس»

قلبك ربابة وترها الوحيد روحي.

إعلان الطوارئ في مصر عقب وفاة رئيس هيئة قناة السويس وعدد من الوزراء، يخرج رئيس الحكومة ببيان رسمي يعزي الوفاة لظروف طبيعية، بينما يسقط حسين على ظهره من الضحك عقب نجاح مخططه بتسميم أموال التبرعات التي قام المسئولون بالاستيلاء عليها، يعلو رنين جرس هاتفه المحمول ويظهر اسم رندة، يرد فورًا وهو ما زال يضحك:

- حسين خير بتضحك ليه؟ اتصل بيك إسماعيل يس؟

- لا مبسوط شويتين.

- أنا محتاجة لك قوي خليك في البيت ١٠ دقايق وح ابقى عندك.

تنهي رندة المكالمة دون انتظار لرد حسين، الذي يبقى واقفًا وهاتفه المحمول على أذنه، يتعجب من المكالمة ويتساءل عن نبرة زوجته السابقة، التي لم يسمعها منذ كتب لها يومًا على فيسبوك: «قلبك ربابة وترها الوحيد روحي»، كان اعترافه الأول بحبها، ويومها اتصلت به وطلبت لقائه بالنبرة ذاتها.

أعاده ألم في بطنه للواقع، انحنى من فرط الألم لكنه تماسك ورمى بجسده على أقرب مقعد، غاب عن الوعي بينما جرس الباب يعلو رنينه معلنًا عن وصول رندة التي اضطرت

لاستخدام المفتاح الذي تركه لها حسين منذ اتفقا على أن تبيت ابنتهما عنده كل يوم جمعة، كانت تأتي أحيانًا لتأخذها وهي نائمة وهو خارج المنزل، فوجئت رندة بحسين ملقى على أرض الصالة في حالة تشنج، صرخت وجرت عليه وانحنت محاولة إيقاظه، كان يبدو وكأنه يعاني من صعوبة في التنفس، التقطت هاتفها المحمول واتصلت بالإسعاف سريعًا، ثم أمسكت وجهه بيديها وهي تقول:

- فيك إيه؟ متسيبنيش؟ أرجوك ماتمشيش، خالد اختفي وإنت تمشي؟ أنا أضيع، أرجوك يا حسين أنا محتاجة لك.

*****

يعود خالد لوعيه يفتح عينيه بهدوء ليجد نفسه عند مدخل بوابة الخروج من مشرحة زينهم، يشير له ضابط الجوازات كي يسرع، يتلفت حوله ثم يتحرك في اتجاه الضابط الذي يتناول جواز سفره ليختمه قائلاً:

- ألف مبروك يا فندم، كفارة.

يبتسم خالد ويهز رأسه دون رد ويدلف للداخل، يعبر الباب ليجد نفسه في صالة كبيرة للغاية امتلأت عن آخرها بإعلانات سياحية عن مصر، يشير له موظف في شركة الطيران كي يقترب، يتذكر أنه لم يحجز تذكرة طيران، لكن ميكروفون الإذاعة

الداخلية يقطع تفكيره مناديًا باسمه:

- خالد محمد رشوان، الرجاء التقدم لمكتب طيران «لوفتهانزا» لا ستلام التذكرة وإنهاء الإجراءات.

تبدو الدهشة على وجهه، لكنه يبتلعها ويسرع في اتجاه مكتب الشركة الألمانية التي أشار لها لوجو الشركة، تستقبله موظفة شقراء تطلب منه وضع حقائبه على الميزان، فيخبرها أنه لا يحمل سوي حقيبة ظهره، تنهي إجراءاته وتشير له بالدخول في بوابة تقوده للطائرة مباشرة، وخلال خمسة عشر دقيقة يجلس خالد في مقعده متجهًا إلى ألمانيا، يعيد مراجعة التذاكر فيجد حجزًا آخر إلى طوكيو في اليابان، يمسك التذكرة مشدوها يقلبها بين يديه ليجد رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص على وجهها الآخر:

- صاحب العصافير الورق في المشرحة فلت برق بس البقية صابها الغرق.

يضع خالد طائر الأوريجامي الأخير رقم ١٠٠١ على مقعده ثم يبتسم ويتجه إلى ممر الطائرة.

*****

يصطحب وليد رندة من قسم البوليس، بعد إنهاء التحقيقات عقب إصرار طبيب الصحة المنوط باستخراج شهادة الوفاة على

الاتصال بالشرطة لأن حسين توفي مسموماً، كانت عينا رندة قد تحولت لكرتين بارزتين من الدم من كثرة البكاء، طال وقت التحقيق وتقفيل المحضر انتظارًا لوصول تقرير الطب الشرعي، أدلت بأقوالها ونفت احتمالات الانتحار التي طرحها وكيل النيابة، ربت وليد على كتفها وهو يقودها لسيارته قائلا:

- الله يرحمه يا رندة.. شدي حيلك.

ألقت رندة بنفسها داخل السيارة دون أن ترد، أسرع لمقعده مديرًا سيارته ليعلو صوت الكاسيت بأغنية "Non, Je ne regrette rien" لأيديث بياف، تمد رندة يدها لتغلق الكاسيت وهي تقول في غضب:

- احترم موت صاحبك شوية.

يرد وليد ببرود شديد:

- صاحبي كان بيحب الأغنية دي.

- آه بس ماكنش بيحبك.

وعلى باب البناية- التي تسكنها رندة- تغادر السيارة طالبة من وليد ألا يتبعها، تجري اتصالًا هاتفيًا بوالدتها أثناء صعودها السلم لتطلب منها العناية بطفلتها حتى الغد، لأنها لن تتمكن من الحضور لاصطحابها، مخبرة إياها بموت طليقها. تدخل شقتها، تحاول الاتصال بخالد عدة مرات، لكن الرسالة

المسجلة التي تشير للهاتف المغلق تعاود الرد عليها في كل مرة، تتصل ببهاء، فيرد عليها:

- رندة.. إنتوا فين؟

- حسين مات يا بهاء.

يحتل الصمت فراغ المكالمة، ثم يبدأ نشيج بكاء بهاء في الارتفاع فتتوقف رندة عن المقاومة وتنهار باكية بصوت عال.

*****

«صاحب الحقيقة»

انبثقت بجوار مقامه عين يشرب منها المحبون ويتداولون الأساطير.

بمجرد اختفاء خالد، يغادر العجوز عربة المترو التي توقفت في منطقة خالية تماما إلا من شجرة جوز عملاقة، كاد عرض جزعها أن يبتلع قطار المترو وعجزت عيناه عن رؤية ارتفاعها الذي ألقى بظلها من حولها حتى بدت الشمس وكأنها عاجزة عن دخول تلك البقعة، ابتسم الرجل للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، ألقى بنفسه محاولًا احتضان الشجرة التي اهتز بعض أغصانها، أغمض عينيه محاولًا تذكر وجه أمه، خفتت الأصوات من حوله نهائيًا إلا ذلك الصوت الذي يرن في أذنيه لمترو قادم داخل النفق، ذلك الصوت الذي صاحب أذنيه لعقود طوال، أخذ الصوت ينسحب تدريجيًّا بينما يعلو في الجانب الآخر صوت بعض العصافير التي تعد أعشاشها، ملأت الجو رائحة الجوز الشهية، استنشقها في هدوء وعلى وجهه نفس الابتسامة، نبتت في عينيه دمعتان شفافتان سقطتا على الأرض لتنبت فورًا وردتين «بلدي» بيضاوين، انحنى ليربت عليهما ثم جلس مستندًا على الشجرة في سكون، حاول أن يتكلم فخرجت من حنجرته موسيقى سحرية لم يسمع مثلها من قبل، ومع رحيل شمس اليوم كان العجوز الذي استقر في مرساه الأخير قد رحل ودفن داخل مقام أحيطت أسواره بالشجرة، وطليت قبته باللون الأخضر، وعلقت على بابه لافتة كتب فيها «مقام

سيدي صاحب الحقيقة أبوالشجرة» وقد انبثقت بجوار مقامه عين يشرب منها المحبون ويتداولون أساطير حول أنها تنبع من عينيه، وبعد أيام قرر مريدوه إقامة مولده كل عام في الـ٤١ من أغسطس.

*****

«50-51 أغسطس»

المتحف المصري بخير ومازال جاهزاً لاستقبال حفلات الزفاف.

مع الارتفاع الشديد في درجات الحرارة- والتي تجاوزت الخامسة والخمسين- أقفرت الشوارع تماماً، ومع نهاية الأسبوع السابع من شهر أغسطس وتداول أنباء عن احتراق الأراضي الزراعية في الدلتا ليصل سعر كيلو الطماطم إلى ٢٣٠ جنيها، بدأت ثورة مكتومة داخل البيوت، يعجز أصحابها عن النزول للشارع بسبب الحر الشديد، انتشرت الاعتراضات على شبكات التواصل الاجتماعي رغم السرعة البطيئة جدًا للانترنت، أطلقت شركات المياه الغازية حملات إعلانية ضخمة للاستفادة بالحدث، بينما أعلنت وزارة التعليم تأجيل الدراسة لموعد غير محدد، اجتمعت الحكومة عدة مرات برئيس الجمهورية، وصورت الكاميرات عدة لقاءات للرئيس بلجان تقصي الحقائق وعدة زيارات ميدانية للأحياء والقرى، ومع زيادة التقارير المخابراتية عن الثورة المكتومة، قررت الحكومة- وللمرة الأولى- صرف علاوة حر وإضافتها للرواتب، بينما أعلنت وزارة التموين عن صرف خمسة ألواح «ثلج» لكل مواطن، وقامت شركات التكييف بتقديم تسهيلات شرائية بضمان حكومي بتوجيهات رئاسية، كذلك قامت كل رئاسة حي بتوفير مولدات كهربائية للإيجار لعلاج انقطاع التيار الكهربائي نتيجة الحمل الشديد.

وسط حالة الفوضى كان تقرير الطب الشرعي قد صدر ليؤكد وفاة حسين بسم السيانيد نتيجة اختلاط بسيط جدًا بالاستنشاق أدى لتأخر الوفاة أيام قليلة، وتم دفن جثمانه ليلًا في حضور مجموعة من أصدقائه المقربين، وغابت عنه رندة التي ما زالت ترفض تصديق رحيله.

وفي منتصف الليل هطلت أمطار شديدة للغاية استمرت حتى منتصف اليوم التالي لتعلن الحكومة الأسكندرية منطقة كوارث، تبدأ نشرات الأخبار في إذاعة أنباء اختفاء الساحل الشمالي للبلاد، ونهاية عصر المعمورة والعجمي وكورنيش الأسكندرية.

يتبادل الناس شائعات حول اكتشاف قبر الإسكندر الأكبر بعد غرق شارع النبي دانيال، وأن تابوته قد طفا فجأة على سطح الماء، يصدر وزير الأثار بيانًا رسميًا ينفي فيه الشائعة ويؤكد أن المتحف المصري بخير وأنه ما زال جاهزًا لاستقبال حفلات الزفاف.

وفي نهاية يوم٥١ أغسطس تصدر الحكومة بيانها التاريخي بإيقاف العمل في كل المصالح الحكومية والهيئات نتيجة انقطاع الكهرباء التام، والارتفاع الرهيب لدرجات الحرارة التي تجاوزت الـ٦٠ لتعم حالة فوضى عارمة في البلاد.

*****

«60 أغسطس»

احنا عملنا اللي علينا والباقي على ربنا، الباقية في حياتك.

يحمل أشرف والده فؤاد بك- المصاب بنوبة قلبية في سيارته- إلى المستشفي، يستقبله قسم الطوارئ في المستشفي الخاص بحي التجمع، ينقل الممرضون المريض على نقالة مُعدَّة لهذا الغرض حتى باب المستشفي، يتوقف الركب في غرفة الدفع التي تسمح بالدخول للمستشفي، يطلب المحاسب خمسين ألف جنيه تحت الحساب، يخرج أشرف محفظته في عصبية طالبًا من المحاسب السماح بدخول والده أثناء السداد، يزداد تجهم وجه المحاسب ويمد يده في برود شديد طالبًا التسديد، يخرج أشرف بطاقته الائتمانية يلتقطها المحاسب ويمررها في الماكينة قبل أن يخبره أن الرصيد غير كاف، يجري أشرف مكالمة تليفونية بخدمة العملاء في البنك ليرد عليه الجواب الآلي ويخبره أن العمل في البنك متوقف، يتوسل للمحاسب سحب مبلغ أقل والسماح لوالده بالدخول، لكن المحاسب يطالب الممرضين بإبعاد النقالة من أجل استقبال مريض آخر.

يعود أشرف بوالده للسيارة، تجري قطرات العرق على وجهه بفعل الحرارة الشديدة للجو وينطلق نحو مستشفي حكومي قريب، تبدو الطرقات مقفرة في ظل عزوف الناس عن نزول الشوارع هربًا من الحرارة الشديدة، يتحول لون كل شيء

للأصفر المتوهج بينما يسب هو المحاسب والمستشفي والبلد، وعلى باب المستشفي الحكومي يساعده جندي أمن مركزي وعامل على نصبة شاي، في نقل والده لمدخل الطوارئ الخالي تمامًا من أي تمريض.

يصرخ أشرف طالبًا العون فيجري الجندي باحثًا عن طبيب أو ممرض، بينما يقوم عامل نصبة الشاي الذي يرتدي الجلباب الصعيدي ويعتمر «عمة» بيضاء بإنهاء إجراءات الدخول لفؤاد بك مكاوي، طالبًا من أشرف إكراميته، يضع أشرف كل ما في جيبه بين يدي الرجل الذي يصطحبه لغرفة العناية المركزة، التي لا يوجد فيها سوى فراش وتكييف شباك يصدر ضجيجًا ضخمًا لا يتناسب مع حجم تبريده، يضعان الرجل سويًا في الفراش بينما يتساءل أشرف:

- أنت متأكد إن دي غرفة الرعاية المركزة؟!

- يا باشا الراعي هو الله.

- يعني إيه؟

- يعني ارمِي حمولك على الله وطلع موبايلك واطلب الرقم ده.

يطلب أشرف رقم طبيب أملاه له عامل نصبة الشاي، يروي له الأعراض وتفاصيل المرض، يعده الرجل بالوصول خلال

نصف ساعة، يطلب منه عامل النصبة الانتظار في الخارج، فيرفض.

يبقى بجوار فراش والده عاجزًا عن التصرف، يصل الطبيب يطلب من أشرف الخروج من الغرفة، ويشير لعامل نصبة الشاي بأصابعه طالبًا مبلغ الكشف، يطلب عامل نصبة الشاي من أشرف مبلغ ألف جنيه أجرة الطبيب، فيبلغه أنه لا يملك أوراقًا نقدية في جيبه، يطلب منه الرجل السحب من ماكينة قريبة، فيرفض الانصراف قبل الاطمئنان على والده، يخبره الرجل أن الطبيب لن يعمل سوى بعد أن يتلقى أتعابه، فيجري مسرعًا نحو الماكينة ليسحب المبلغ المطلوب وبمجرد عودته يجد الطبيب واقفًا على باب الغرفة بصحبة عامل نصبة الشاي.

يسأل في لهفة:

- ها حضرتك طمنّي.

يمد الطبيب يده طالبًا المال، يخرج أشرف المبلغ ويضعه في يد الطبيب، الذي يقول:

- إحنا عملنا اللي علينا والباقي على ربنا، البقية في حياتك.

*****

«62 أغسطس»

تخفيض ساعات اليوم إلى 16 ساعة.. وإنهاء شهر أغسطس عنوة.

يجتمع وليد وبهاء ورندة للمرة الأولى منذ أيام طوال، يجمعهم الصمت رغمًا عنهم، يتبرم وليد ويحاول الحديث، فيشير له بهاء تجاه رندة طالبًا منه الصمت، ينظر وليد لرندة ويقول بعد أن فرغ صبره:

- وبعدين؟

لا تجيبه رندة وتشيح بوجهها بعيدًا، يقوم وليد من مقعده ويقترب من بهاء قائلا:

- وبعدين يا بهاء؟

- ولا قبلين يا وليد اللعبة خلصت.

- يعني إيه اللعبة خلصت؟

- يعني خلاص حسين مات، وخالد اختفي، وأنا استكفيت، وح اروح أكمل حياتي في بيت جدي في الإسماعيلية حيث غرزة عنتر الجميل، ورندة مش عايزة تتجوزك، يعني شوف حالك.

ألجمت الكلمة وليد واحتل الغضب ملامحه، فالتقط الريموت كونترول محاولًا تغيير الموضوع، أذاع التلفاز نبأ قرار رئيس الوزراء بتخفيض ساعات اليوم إلى ١٦ ساعة، لضمان حفظ الكهرباء مع قرار بإنهاء شهر أغسطس عنوة واعتبار الغد هو المتمم له، ضحك بهاء بصوت عال قبل أن تقاطعه رسالة على

هاتفه المحمول، قرأ الرسالة سريعًا ثم صرخ:

- فؤاد مكاوي مدير مكتب البريد مات.

أجابت رندة التي تتحدث للمرة الأولى:

- عرفت ازاي؟

- خالتي بعتت لي رسالة، قالت لي إنها قرِت النعي في الجورنال والعزا بكرة.

ثم استطرد:

- ما تيجي نروح.

صرخ وليد مقاطعا بهاء:

- إنتوا مجانين؟ تروحوا فين؟ ولمين؟ إحنا في إيه ولا في إيه؟

قامت رندة من مقعدها واتجهت نحو باب الشقة ثم فتحته، وقالت بصوت عالٍ:

- وليد.. إطلع بره البيت ده وما تدخلهوش تاني أبدًا.. مش عايزة أشوف وشك تاني.

*****

«سفر النهاية»

ليلة قاهرية ضل فجرها الطريق، وبقيت الديكة على قمم البنايات الشعبية تحاول الصياح دون جدوى بعدما اختفت حناجرها.

توجس الليل خيفة من البقاء إلى الأبد في تلك الدنيا، ارتعشت غانية كانت تحلم بانتهاء عملها والعودة إلى طفلها الوحيد بالمنزل، ذلك الطفل الذي استبدل دموع غياب أمه بقطرات حليب فاضت بها عيناه ولم يعرف مصدرها.

كان حليب تلك الليلة حالك السواد، لكن رجلًا في أقصى المدينة كان يبدو وكأنه يدرك ما حدث، وعلى مقهى يشبه صناديق البريد الخشبية المهجورة في مداخل العمارات القديمة قرر أن يعترف، لكنه لم يجد بشرًا من حوله، فقرر أن يركب المترو إلى جهة ما لغرض ما .

كان المترو خاليا إلا من قلة، شبح يشبه المسيح على الصليب، تعجب الرجل من آخر يحمل صليبه مرتحلا في المترو، وعجوز أخرى ترتل- في صمت- أغنية حزينة بلا كلمات، ومجموعة شباب صبغت وجوههم قطرات عرق صيفي بصبغة بلا لون، تعجب الرجل من إدراك معناها

ولأن يهوذا ما ت مظلوما، ولأن لا مسيح على تلك الأرض،

اصطف البشر والليل خلف يزيد، وارتفعت ضحكاتهم حتى تخيلها المؤمنون صياح الديَكة، فلا ناموا ولا صلوا.

فقط ارتعد الخوف في القلوب للحظة، أدرك ضعفه المتناهي أمام سواد القلوب المصبوغة بالخيانة، قرر الفرار فلم يجد مكانا.

يقول البعض- بعد عشرات السنين، وتحديدًا في شهر أغسطس- إنهم وجدوا القمر قتيلا على ناصية شارع جامعة الدول العربية، وأن الشمس انضمت لرحلة الرياح، وأن السماء سقطت من علٍ فلم تجد سوى قلب الطفل الباكي لتستقر فيه.

الأكيد أن من بقوا ليحكوا لنا هذه القصة، ليس فيهم إنسان بالمعنى المعروف.

نعم عزيزي القارئ.. لا تندهش.. فبدايتنا هي نهايتنا، لكننا لا ندرك هذا إلا متأخراً.

*****

«اليوم الأخير 63 أغسطس»

والحمير البيضا اللي ما اتاكلش منها اتركب.

نهاية الأسبوع التاسع من أغسطس، اليوم الأخير من الشهر الثامن من العام، كما قرر رئيس الوزراء، الساعة العاشرة بتوقيت مصر، الجديد، السابعة مساءً بالتوقيت الفعلي.

ازدحم مسجد عمر مكرم بالمعزين الذين جاءوا لحضور عزاء فؤاد بك مكاوي، علقت إدارة المسجد لافتة ورقية، كتب عليها الاسم بخط كوفي جميل، ووقف أشرف ومعه مجموعة من أصدقائه وأصدقاء والده لتلقي العزاء، ونتيجة لزيادة عدد الوفيات في البلاد في الأسابيع الأخيرة، قررت إدارة المسجد ضم النساء والرجال لقاعة واحدة لكل عزاء.

أنهى المقرئ- صاحب الصوت الرخيم- الربع الأول، بينما يمر الجرسونات بالقهوة والماء والمياه الغازية على المعزين لمواجهة الحر الشديد، رغم الجهد التي تبذله المكيفات في ترطيب القاعة، اقتربت امرأة- ارتدت زي العزاء الأسود التقليدي- من مقعد يجلس عليه شاب من رفاق أشرف في الجامعة الأمريكية، وقبلته في خده قبل أن يتبعها هو بقبلة في فمها، التقطت عينا بهاء المشهد، فأشار لرندة التي كتمت ابتسامتها، عاد المقرئ من جديد ليقرأ ربعًا جديدًا، بينما زاد عدد المعزين في القاعة.

مع نهاية الربع الثاني كان عدد القبلات قد زاد في القاعة،

وانتحى كل ثنائي ببعضهما البعض في قبلات طويلة، ما اضطر المقرئ- الذي جلس ليشرب الينسون- إلى التحدث في الميكروفون قائلا:

- اتقوا الله.

بدأ بعض المعزين من الرجال خلع جاكيتات بزاتهم، فأسرع المقرئ في بدء الربع الثالث حتى يتوقف هذا الحدث العجيب، ومع نهايته كان أحد المعزين في أقصى القاعة يضاجع سيدة أربعينية تطلق تأوهات مكتومة، بينما استمر الجرسونات في توزيع المياه الغازية والقهوة والشاي والمياه على الجلوس، مستغلين مرورهم بين المقاعد في مشاهدة ما يحدث، إلا أن آخر في الجانب الآخر من القاعة بدأ في مضاجعة زوجته التي اصطحبته للعزاء، وقبل أن يعود المقرئ للميكروفون، كانت الكهرباء قد انقطعت عن القاعة، وبعد أن عادت خلال خمس عشرة دقيقة كان أغلب من في القاعة دون ملابسهم يضاجعون نساءهم في شبق محموم، اختلطت فيه تأوهات النساء لتعلو على صوت الميكروفون الذي حاول به المقرئ إعادة المعزين إلى رشدهم.

ابتسم بهاء لرندة التي انشغلت في متابعة ما يحدث حولها في ذهول، ثم نظرت له فاقترب منها وغابا في قبلة طويلة، بينما كان المقرئ يخلع ملابسه ويلف حول القاعة عاريا

وصارخًا بكل ما يملك من قوة:

- أوووووووووووووووووووه.

بينما التقط أحدهم الميكروفون وأخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ منها في صوت ذاهل:

- كان يا ما كان في سالف العصر والآوان، غابة زي كل الغابات، بياكل فيها القوي الضعيف، بس الغابة دي كان فيها قطيع كبير من الحمير مساكين، الأسود والفهود والنمور والضباع بتهاجمهم كل يوم، يا كلوا بدال الواحد عشرة، ويصيبوا عشرة تانيين، الحمير البيضا، تعبت م الخوف، قررت تجتمع، وتفكر في طريقة لحل مشكلة الخساير دي، وعند العصر والشمس البرتقاني بتودع السما، علشان القمر زقها، اجتمع القطيع، وقف كبير الحمير وبص واتأكد إن الكل موجود وقال بصوت حاول يكون غاضب: وبعدين يا حمير؟ ح نفضل نموت في الغابة دي لحد إمتى؟ رد الحمار الخواف وقال: إحنا نسيب الغابة دي ونهاجر، العمر مش بعزقة يا كبير، رد الجميع في صوت واحد: أي غابة ح نروحها ح يحصلنا زي ما بيحصل هنا، والوحوش ح تاكلنا، رد الكبير: ومش ممكن نسيب أرضنا أبداً، دي أرض جدودنا اللي ورثناها منهم، رد الحمار المكار وقال: إحنا نروح للقرد الحكيم نسأله على حل، إحنا حمير وبرضه

مخنا على قدنا، هاص الحيوانات، بعضهم فرحان بالفكرة، وبعضهم مش عاجبه، شايف نفسه حمار بيفهم، بس الكبير رفع صوته ونهق وقال: سمع هس، الكل يسكت ويخرس، أنا ح اشكّل وفد ونروح نقابل القرد الحكيم، وبعد مشاورات مع القرد، وهات وخد، وصلوا لاتفاق عظيم، بعد ما القرد نفسه اتقطع بين الوحوش والحمير، إن قطيع الحمير يقدم كل يوم حمار واحد بس للوحوش، وبكده تبقى الخساير قلت كتير قوي، الحمير علشان الوحوش ماتتلخبطش، قرروا يخططوا الحمار اللي اختاروه علشان يبقى متعلم والوحوش مايغلطوش ويهجموا على حد تاني، وبعد ما عملوا القُرعة واختاروا الحمار وخططوه بالاسود وحطوه في المكان المتفق عليه، رجعوا بيوتهم فرحانين، هرب الحمار وخاف من الموت وراح يعيش لوحده، الوحوش غضبوا لما مالقوش الفريسة، لكن القرد هدّاهم، ويوم بعد يوم بقى الحمير يخططوا حمار ويسيبوه، الحمار المخطط يهرب وهما يتعاقبوا، ومع مرور الزمن بقت الحمير المخططة اللي رفضت تتاكل حرة وطليقة في الغابة، والحمير البيضا اللي ما اتاكلش منها اتركب.

تمت ٢٧ أكتوبر ٢٠١٥

عن المؤلف

أسامة الشاذلي، روائي وكاتب صحفي مصري من مواليد 12 ديسمبر 1973.

تخرج من الكلية الحربية المصرية عام 1994 وعمل في القوات المسلحة حتى قدّم استقالته وخرج من الخدمة في يناير 2005.

عمل في عدة مواقع إخبارية كناقد سينمائي بعد دراسة حرة للنقد السينمائي، وشارك في تأسيس موقع «السينما» وموقع «كسرة»، وله العديد من المقالات التي نشرت في مواقع المصري اليوم والبديل والبداية والتحرير.

صدر له إلى الآن 5 روايات، الأولى «سيد الأحلام» في العام 2009 عن دار نشر الكاتب، والثانية «قهوة الحرية» في العام 2010 عن دار نشر الأندلس، والثالثة «كفر العبيط» في العام 2012 عن دار نهضة مصر، والرابعة «نوستالجيا» عن نفس الدار عام 2013، ثم رواية «سيرة عباد الشمس» التي صدرت مؤخّراً في أغسطس 2014.

شارك في تأسيس إحدى أول الإذاعات الأون لاين في الوطن العربي «تيت راديو» عام 2008، واستمر فيه إلى العام 2010.

أغسطس

في خلال ساعات قليلة كانت المواقع الإخبارية الإلكترونية تتحدث عن ظاهرة الخصيات الأربعة لمواليد الأول من أغسطس، بعد أكثر من 800 بلاغ في القاهرة نفسها، ما دعا وزارة الصحة إلى إصدار بيان- خلال أولى ساعات الليل- تنفي كونها ظاهرة وتتهم المواقع بنشر الشائعات.

***

في هذه الرواية يتجسد العبث منتهاه، والشجن أيضًا، كتبها أسامة الشاذلي بلغة شعرية رائقة، بعد قراءة هذه الرواية نتقبل الواقع بمزيد من السخرية، فما بين ما نحياه بالفعل وبين سطور الشاذلي المليئة بسخرية مريرة، يُمكن للقارئ التقاط لحظات من السكون، حتى لا يمتزج الواقع العبثي بالأحزان.

الناشر

تصميم الغلاف كريم آدم

@Arab_books

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع